سلسلة العلم والحياة (١٤٤)

مدينة الفسطاط
و
عبقرية المكان

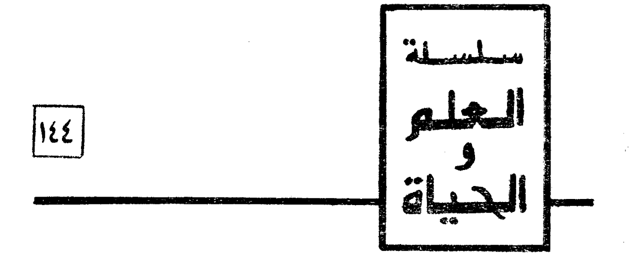
د. أحمد محمد عوف



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٣

الاشـــراف الفنى :

محمود الجزار


١٤٤
سلسلة
العلم
و
الحياة

هـــذا الكتـــاب

هذا الكتاب ليس تاريخا لمدينة القاهرة الخالدة بقدر ما هو تصـــوير لرحـــلة هذه المدينة خـــلال ١٤ قرنا قطعتها من عمر الزمان عندما أقام عمرو بن العاص مدينة الفســـطاط أول مدينة اســـلامية فى أفريقيا . ويضم الـــكتاب قصـــة أربع مدن هى الفســـطاط والعســـكر والقطائع والقاهرة المعزية ، وهذه المدن الأربع اندمجت معا وكونت عبر العصـــور القاهرة الكبرى كما كان يطلق عليها فى العصـــور الوســـطى حتى القرن ١٨ . وهذه المدن لم تخضـــع للتخطيط المنظم بل زحفت وتوســـعت عشوائيا . وهذه المدن الأربعة كانت فى الأصـــل معســـكرات وثكنات لجنود الحاميات . ومع الزمن أصـــبح كل معســـكر مدينة . واتصـــلت كل مدينة بجاراتها اتصـــالا جغرافيا ممتدا فيما حولها . وكل مدينة عند انشـــائها كانت عاصـــمة لمصر الاســـلامية . فالقـــاهرة الكبرى مدينة بنيت فى أحضـــان الاســـلام وتعتبر متحفا أثريا للعمارة الاســـلامية وتطورها عبر العصـــور ، فقد عاصـــرت تاريخ مصر منذ الفتح وحتى اليوم . لهذا تعتبر القاهرة المعاصرة عاصمة العواصـــم .

والكتاب عرض لمســـيرة هذه العاصـــمة المركبة وقد كتب بأسلوب الســـرد التاريخى لتكوين صـــورة تاريخية لهذه المدينة الخالدة منذ القرن الســـابع وحتى هذا القرن .

ومدينة الفسـطاط أو الخيمة كما كان يطلق عليها فى عصر الفتح ، كان يطلق عليها منذ انشـائها مدينة مصـر وظل هذا الاسـم متداولا حتى هذا اليوم عوضـا عن اسـم القاهرة . وهذا الاسـم أكثر شـيوعا حتى الآن . فالقاهرة مهما اتسـعت فقد قامت فى أكناف مصـر العتيقة ، ومهما اختلفت الأسـماء فالفسـطاط هى أم القاهرة وما عداها توابع لها .

(مدينة الفسطاط وعبقرية المكان) .. كتاب رابع لثلاثة كتب كتبت عن الأزهر فى ألف عام ومصر فى ظلال الاسلام وأحوال مصر من عصر الى عصر .. وهذه كتب نشرت فى حينها ولم يبق سوى رباعية القاهرة لتكملة الرباعية التاريخية عن تاريخ مصـر الاسـلامية .

ولكتابة هذه الرباعية القاهرية مناسـبة تاريخية وهى مرور ١٤٠٠ سنة على انشـاء مدينة الفسـطاط عام ٢١ هـ . لهذا الكتاب تناول صـورا لم ترد فى الكتب الثلاثة . وهذا ما يجعل له أهمية وسـمة مميزة من خلال تفرد الرباعية بمسـاحة غطت النواحى السـياسية والاجتماعية والعمرانية والاقتصـادية من خلال سـرد تاريخ قد نسيناه أو تناسـيناه . لهذا ما جاء بهذا الكتاب تذكرة للمصريين بمصـر المحروسة .

والله الموفق ،،،

المؤلف

اهـــــداء

الى القاهرة ام الدنيا وعاصـــمة العواصم ومقبرة الغزاة ٠
من طالها قصـــمته ومن حكمها بالعدل رفعته ومن اذلها هانته ٠
فاليها اهدى هذا الكتاب ليكون ملحمة شـــعب اظلته بحنوها طوال
مسيرة سلختها من عمر الزمن بلغت ١٤ قرنا ٠ وهذا يكفيها ٠

د ٠ احمد عوف

(١)

قصـــة الفتـــح

بعد الفتح الاســــلامى للشـــام قدم عمر بن الخطـاب الى الجابية قرب دمشـــق . واختلى به عمرو بن العاص أحد قواد الفتح . فقال للخليفة : يا أمير المؤمنين ائذن لى بالســـير الى مصـــر ، فانك ان فتحتها كانت قوة للمســـلمين وعونا لهم وهذه أكثر الأرضـــين أموالا وأعجـــزها عن الحـــرب والقتال . وكان عمرو بن العاص أيام الجـــاهلية قد زارها عـــدة مـــرات وزار الاســـكندرية لهذا عندما كان يتحدث عن مصـــر كان عارفا بأحوالها ودروبها . لكن الخليفة أظهر له تخوفه على المســـلمين بل أبدى كرهه لهذه الفكرة · الا أن عمرو بن العاص عاود طلبـــه وظل يلح على الخليفة حتى أذن له بالفتح · وســـار عمـــرو بقواته عـــام ١٨ هـ/٦٣٩ م من قيسارية بفلسطين ·

وكان شـــرط الخليفة هو أن يســـير عمرو بقواته حتى يأتيه كتاب اما بالكف عن المســـير أو مواصـــلة التقدم لمصـــر ، وقال عمر : وان دخلتها قبل ان يأتيك كتابى فامض لوجهك واســـتعن بالله واســـتنصره . وكان ابن العاص فى ســـباق ليصـــل حدود مصـــر قبل أن يأتيه كتاب الخليفة ، الا أن الرســـول لحق به

بعدما نزل رفح وكان عمرو قد راوغه حتى لا يعطيه الرسالة فاستنهض قواته الى العريش . ولما وصلها طلب رسول الخليفة . فسأل عمرو هل العريش من مصر ! فأخبر أنها بلدة مصرية . فطلب كتاب الخليفة . وقرأه على الجميع . وقال لهم أمير المؤمنين عهد الى ان لحقنى كتابه ولم أدخل أرض مصر أن أرجع وقد دخلت أرض مصر فسيروا وامضوا على بركة الله وعنه .

وكان الطريق مفتوحا أمام قوات الفتح التى وصلت الى حصن الفرما فى شمال شرقى الدلتا . وحارب المسلمون الحامية البيزنطية لمدة شهر بعدما حاصروا الحصن . وكانت هذه أول معركة للفاتحين فوق الأراضى المصرية حيث انتصروا .

من هنا نجد أن العرب أصبحوا الآن فى مواجهة عسكرية مع البيزنطيين وكان يمثلهم قيرس (المقوقس) كوال على مصر للأمبراطور فى القسطنطينية وأسقف الاسكندرية للكنيسة الملكانية الرومية ، وهذه الفترة بالذات نجدها غامضة فى كتب المؤرخين العرب لأنهم أخذوا عن المؤرخين البيزنطيين الذين كانت كتاباتهم بالاغريقية وتتسم بالتعصب ضد الاسلام . فكان ما كتبوه عن عصر الفتح الاسلامى لمصر فيه تحيز . الا أن انتصار المسلمين وفتحهم لحصن نابليون يعتبران انتصارا محوريا لهم ولا مرية فيه . وقصة فتح الحصن سوف تعرض من خلال ما كتبه (بتلر) فى مجلده (فتح العرب لمصر) وما كتبه ستانلى بول فى كتابه (تاريخ مصر فى العصور الوسطى) وهما مستشرقان ضليعان فى التاريخ الاسلامى .

وكان خطأ قيرس فى مواجهته لقوات الفتح أنه لم يقدر الموقف العسكرى . لأنه كان على بينة بأن العرب قادمون لفتح مصر .

ولاسيما بعد انتصاراتهم المذهلة فى الشام وفلسطين على البيزنطيين · ومن الطبيعى أنهم سيأتون برا من الشرق · وكان عليه حشد القوات البيزنطية فى طريق الفتح الا أنه لم يفعل هذا فترك غزة ورفح والعريش بلا قوات واكتفى بحصن الفرما الذى كان مفتاح أى غزو لمصر من جهة الشرق . وكان لسقوطه فى أيدى الفاتحين قد جعل الطريق خلفه مفتوحا حتى المدينة المنورة عاصمة الخلافة . مما يسهل ارسال القوات لنجدة هؤلاء الفاتحين وكان عدد قوات ابن العاص أقل عددا وعدة من قوات البيزنطيين فى حصن الفرما وشرق الدلتا . ومما قوى عمرو انضمام البدو الى قواته وهو فى طريق الفتح للجبهة الشرقية . وهؤلاء البدو هم عرب رحبوا بأخوانهم عرب الجزيره العربية . وقد قدموا كل العون لهم .

واتجه عمرو متوغلا فى الصحراء الشرقية الى الصالحيه ثم بلغ التل الكبير حتى وصل لبلبيس . ودار هناك قتال استمر شهرا انتصر فيه المسلمون · ثم اتجهوا الى هليوبوليس (عين شمس) بعد ذلك .

وفى هليوبوليس قسم عمرو بن العاص قواته الى ثلاث فرق حيث وضع فرقة بالشمال من حصن بابليون الذى فى مصر القديمة حاليا . والفرقة الثانية جعلها فى تندونياس (أم دنين) بالازبكية حاليا . والفرقة الثالثة جعلها فى هليوبوليس (عين شمس) . وكان الهدف من توزيع هذه القوات الثلاث فى هذه المواقع قد حدد ما يفكر فيه عمرو بن العاص · فلقد كانت خطته اخراج البيزنطيين من حصونهم ولاسيما وأنه ركز مجهوده الرئيسى للهجوم على هليوبوليس فجعل قوات حصن بابليون تخرج للدفاع . فأطبقت قوات عمرو عليها . مما جعل البيزنطيين يفرون

الى النيل ويلقون بأنفسهم فيه ، واستطاعت قوات الفتح تشتيت القوات البيزنطية في تندونياس وهليوبوليس ولم تبق قوات بيزنطية سوي ما كانت بالحصن وما انضم اليها من فلول البيزنطيين المدحورين .

ومن تقييمنا لقوات الفتح والقوى البيزنطية فى مصر نجد أن القوات العربية كانت قد تمرست على الحروب فى فارس والشام أمام جيشين لامبراطورتين عاتيتين هما الفرس والروم . وهذه القوات متمرسة على القتال فيما بينهما · وهذا القتال لم ينقطع الا بعد دخول قوات المسلمين معهما فى معارك تاريخية انتصروا عليهم فيها . وكان المسلمون يحاربونهم فى جبهتين وحققوا انتصاراتهم فيها.

والقوات البيزنطية فى مصر كانت قوات حصون لاتعرف المناورة . لكنها تجيد الدفاع عن الحصن ولاسيما وأن العرب لا يعرفون هذا الأسلوب فى القتال لأنهم لم يتدربوا أصلا على آلات الحصار لكنهم تدربوا على الحرب فى ساحات قتال مفتوحة يتم فيها النزال والمواجهة .

ولقد دام حصار حصن بابليون سبعة أشهر لأن طبيعة هذا الحصن الجغرافية أشبه بالحصون الساحلية .. فالحصن شرقه وشماله صحراء قاحلة . وبالشرق بالذات يطل جبل المقطم عليه وغرب الحصن يطل على النيل مباشرة وهذا يشكل مانعا مائيا كان يستغل أثناء الحصار فى عبور الامدادات لبابه الغربى . وفى الجنوب توجد بركة الحبش وهى تتكون من مستنقعات فى أغلبها . لكن العرب كانوا فى مواجهة الحصن بالصحراء وهم قد ألفوا العيش فيها . لهذا كانوا صامدين وصبورين فى حصارهم . وبعد معركة

هليوبوليس واصـــل عمرو ســيره الى أم دنين وكانت قــرية صــغيرة على النيل ويصــف (الفريد بتلر) هذه القرية بانها كانت مســلحة قوية وكانت تقع شــمال حصـــن بابليون . حيث كانت القوات البيزنطية تنزل منه تباعا وتعود اليه لائذة به عندما تشـــتد المعارك ، وفى أم دنين رغم ان القتال لم يتعد المناوشات لعدة اســـابيع الا أن القوات العربية تناقصـــت أعدادها ولاسيما بعد معارك حصـــن الفرما وهليوبوليس وأم دنين . وهذا ما جعل عمرو بن العاص يطلب قوات جديدة من الخليفة عمر . الا أن المدد العسكرى تأخر عليه .

وما كان على عمرو ســـوى الاســـتيلاء على « أم دنين » بأى ثمن ويؤجل الاســـتيلاء على الحصـــن . فاتجه بقواته الى الفيوم بعد اجتيازه للنيل فى المراكب . وكان هدف عمرو من هذه العملية شـــغل قواته حتى لا يتقاعســـوا عن القتال فيما بعد . واجتاز عمرو بقواته النيل بدهاء لأنه كان على بينة بخطورة هذا العبور للضـــفة الغربية . واتجه الى الجنوب مســـتوليا على كل ما كان يقابل قواته الى أن وصـــل لمشـــارف الفيوم ولم يدخلها لأنه كان يهدف الى تضـــييع الوقت حتى تصـــلة الامدادات من المدينة المنورة . ولما علم بوصـــولها الى هليوبوليس عاد من حيث أتى واســـتطاع بقواته العبور الى الضـــفة الشـــرقية وعلى عجل ولاســـيما بعدما اســـترد البيزنطيون أم دنين الا أنهم عجزوا عن منع التقاء عمرو بالقوات الجديدة لأنه انضم اليهم .

ويعتبر عبور عمرو فى النيل والعدو فى انتظاره بالضـــفة الشـــرقية معجزة فعلا وقد ســـاعده المصـــريون فى هذا العبور مســـاعدة فعالة ولاسيما وأن تيودور كان قائد حامية الفيـــوم البيزنطية قد ســـبق عمرا فى انســـحابه ووصـــل الى حصـــن

بابليون ليقويه ويحصنه . وكان تيودرر لديه السفن الرابضة بحذاء النيل غرب الحصن . والنيل كان فى التحاريق ولم يفض بعد . مما يعطى لسفن البيزنطيين حرية الحركة والمناورة لتوجيه ضربتها ولاسيما وأن القوات الاسلامية كانت فوق المراكب بعتادها وخيولها والبيزنطيون على البر . لكن الحق يقال أن المصريين ساعدوا هذه القوات على العبور وموهوا على البيزنطيين لانهم شعروا أن قوات الفتح اكثر عدلا ورحمة بهم من هؤلاء البغاة الذين يستعمرونهم . فقد لاحظوا أن المسلمين رحماء فيما بينهم ورحماء بهم عندما فتحوا جنوب الجيزة حتى الفيوم. فلما توغلت القوات العربية بمصر الوسطى اكتشفوا افك البيزنطيين حولهم . فلقد رأوهم عادلين قد سووا فيما بينهم . فهم أخوة فى الدين لا فرق بينهم الا بالتقوى .

والى الآن لا يعرف كيف عبر عمرو العبورين ولاسيما العبور الثانى فهذا لم يكن يتم بأى مقاييس حربية لأن العبور كان لمانع مائى بقوات محملة فوق مراكب وليست مجتازة لمعابر او كبارى وهذا أشبه بعبور قواتنا فى حرب اكتوبر لقناة السويس . الا أن هذين العبورين قد تما . فنابليون عندما عبر عام ١٧٩٨ نفس هذه المنطقة من امبابة الى بولاق فلقد كان عبوره عبور المنتصر والقاهرة كانت فاتحة له ذراعيها لانها كانت خاوية ومدينة أشباح .

ونزلت قوات عمرو شمال قرية أم دنين ليكون على مقربة من قوات المدد . ولما اجتمعت كل القوات ارتفعت معنويات عمرو ابن العاص ولاسيما وأن القوات تجمعت فى عين شمس على مقربة من الماء والمؤن . وأصبحت قواته عددها ١٥ الف وكلهم من خيرة قوات الفتوحات الاسلامية . فلقد أتاه الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود وعبادة الصامت ومسلمة بن مخلد .

وكانت خطة عمرو بن العاص هى نفســها خطته فى معركة هليوبوليس الســابقة فلقد اســتدرج قوات تيودور بالحصــن الى الســهل بعيدا عنه . فلقد توجه القائد البيزنطى بقواته الى هليوبوليس ولم يســتوعب الدرس الذى لقنه عمرو لهذه القوات من قبل لأن أرض المعركة شــبه صــحراوية والعرب يجيدون الكر والفر فوقها . وتم اللقاء على مقربة من العباسية (الريدانية) وأوقع عمرو أعداءه فى كمين بين ثلاثة جيوش عربية أطبقت على البيزنطيين من كل اتجاه . مما افزعهم وجعلهم ينســحبون للحصن بعدما خســروا الكثيرين كما أن بعضهم هرعوا للســفن بالنيل واتجهوا للدلتا فارين .

بعد هذه المعركة أرســل عمرو بن العاص كتيبة لفتح الفيوم الا أنه وجه المجهود الرئيسى لفتح حصــن بابليون . فاتجه فى سبتمبر ٦٤٠ م لمحاصرة الحصن .

وكان هذا الحصـــن قد بناه الفرس وقام البيزنطيـــون بتحصــينه وكان يطلق عليه حصــن (باب آليون) وكلمة آليون اسم مصر قديما وقصر الشمع قد أقامه الملك بختنصر الفارسى وكان عبارة عن قبة وكان يطلق عليها المصــريون قبة الدخان . وهذا القصــر حاليا وســط مدينة الفســطاط . والفرس لأنهم من عبدة النار كانوا يوقدون به الشــمع أول كل شــهر شمسى . وكان هذا اعلانا بأن الشمس انتقلت من برج لآخر ، فقصر الشمع كان يعتبر هيكلا لعبدة النار الفرس وهو أحد بيوت النار التعبدية لهم .

وكان لحصــن بابليون أســواره العالية التى هدمت مع الزمن بعد الفتح الاســلامى له . وكان على شــكل مربع وكان فى الســور الجنوبى والشرقى أربعة أبــراج بارزة منه ، وكان

الســـور الغربى بلا ابراج لانه يحاذى النيل وبه باب يطل على مرسى مدرج كانت ترســـو به المراكب والسفن . وبابه الرئيسى كان بين برجين بارزين بالجنوب .

والواقف فوق الحصـــن كان يرى الأهرامات والمقطم والجيزة ومعظم هذا الحصـــن قد تهدم ولم يبق منه ســـوى الباب الجنوبى الكبير وهو مدخل الكنيســـة المعلقة الآن بمصـــر القديمة ويطلق عليه قصـــر الشـــمع . وكان مكان الحصن والقرية الصـــغيرة حوله يطلق عليها مصر .

وكان ســـبب تأخر قوات عمرو بن العاص فى فتـــح هذا الحصـــن أن قواته لم تكن تعرف حصـــار الحصـــون ، وفتحها ، ولانهم لم يكن معهم معدات حصـــار متقدمة رغم أن الخليفة عمر قد أرســـلها لهم لكنهم لم يتدربوا عليها . كما أن الحصـــن كانت تصـــله المؤن من جزيرة الروضـــة فوق جســـر المراكب بالنيل للباب الخلفى الغـــربى . لهذا صـــمم عمرو بن العاص على الاســـتيلاء على جزيرة الروضـــة اثناء الحصـــار ، ولما استولت قواته عليهما هدم اسوارها وحصونها .

هذه قصـــة الحصـــن الذى كان بشـــرقه كنائس وأديرة لم يتعرض لها عمرو واثناء الحصـــار . وكان قد أرســـل قيرس اســـقف بابليون مع وفد لعرو ويقول (بتلر) : فلقيهم عمرو واكرمهم . فقالوا : أنكم قد ولجتم فى بلادنا والحتم على قتالنا وطال مقامكم فى أرضـــنا وانما أنتم عصـــبة يســـيرة وقد أظلتكم الروم وجهزوا اليكم ومعهم من العدة والســـلاح ، وقد أحاط بكم هذا النيل وانما أنتم اســـارى فى ايدينا فابعثوا الينا رجالا منكم نســـمع من كلامهم ، وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن تغشـــاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه ة ولعلكم أن تندموا ان

كان الأمر مخالفا لطلباتكم ٠ وهذا الكلام ما كان نيطلى على عمرو بن العاص . فالروم حشدوا للمسلمين بالشام وفلسطين وكان قائدا فى المعارك وعلى بينة بكفاءة الروم القتالية . لكن عمرا أخر هذا الوفد يومين وترك له حرية التجول بين قواته بعدهما ارسل مع الوفد ما اطلع على احوالها رسالة جاء فيها : ليس بينى وبينكم الا احدى ثلاث خصال . اما أن دخلتم فى الاسلام فكنتم اخواننا وكان لكم ما لنا . وان أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، واما جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وهو أحكم الحاكمين .

وكان عودة الوفد صدمة لقيرس الذى كان يروج أن العرب يقتلون الرسل . وقالوا له :

رأينا قوما الموت أحب الى احدهم من الحياة . والتواضع أحب الى أحدهم من الرفعة . ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ولا تهمة . ما يعرف رفيعهم من وضيعهم . واذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحدا .

فطلب « قيرس » (المقوقس) نفرا يتفاوض معهم . فأرسل له عمرو عشرة نفرا أحدهم عبادة بن الصامت وكان أسود البشرة ، وكلفه بأن يكون المتحدث عنهم . ولا يتفق الا على أحد المبادىء الثلاثة التى بلغ بها الوفد . وتقابل الوفد مع « قيرس » (المقوقس) سرا فى جزيرة الروضة ولم يعلن لقواته عن هذا اللقاء حتى لا يخذلهم . ولما تقابل معهم قيرس رأى عبادة فقال : نحو عنى ذلك الأسود وقدموا غيره يكلمنى ٠ فقالوا : ان هذا الأسود أفضلنا رأيا وعلما وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا ٠ ونرجع جميعا الى قوله ورأيه ٠ فدهش قيرس الا أنه عرض على الوفد دفع الجزية للمسلمين وفك الحصار

محذرا لأن جمع الروم قادم ولا حصـــر له قائلا : وانا لنعلم أنكم لن تقدروا عليهم ولن تطيقوهم لضـــعفكم وقلتكم . ونحن تطيب أنفســـنا أن نصـــالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين ولأميركم مائة دينار وخليفتكم الف دينار فتقبضـــونها وتنصـــرفون الى بلادكم ، فرد عبادة : يا هذا لا تغرن نفســـك ولا أصـــحابك . أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم ما كان هذا بالذى تخوفنا به . والله أرغب ما يكون فى قتالهم وأشـــد لحرصـــــنا عليهم لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا اذا قدمنا عليه .

وواصـــل عبادة فى حـــديثه عن الجهاد فى ســـــبيل الله باســـتفاضـــة وأن القرآن نص على أن كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصـــابرين . وأن كل واحد منهم جاء طالبا للشـــهادة ، ولم يجيبوا لما يطلبه الا لخصـــلة من ثلاث وهى الاســـلام أو الجزية أو الحرب . فطلب منه أن يختار الاســـلام . وراوغ قيرس حتى يتنازل عن هذه الخصـــال أو يعدل عنها . فرد عبادة بعدما نفد صـــبره قائلا : لا ورب الســـماء والأرض ورب كل شىء ما لكم عندنا من خصـــلة غيرها فاختاروا لأنفسكم . واجتمع قيرس بمن كان معه وتشاوروا فى الأمر فقالوا : لن نترك دين المســـيح الى دين لا نعرفه . واذا دفعنا الجزية لم نعد أن نكون عبيدا . فقال لهم عبادة : انهم ان دفعوا الجزية كانوا آمنين على أنفســـهم وأموالهم وذراريهم مســـلطين فى بلادهم على ما فى أيديهم وما يتوارثونه فيمـــا بينهم . وحفظت لهم كنائســـــهم لا يتعرض لهم أحد فى أمور دينهم .

وأمام رفض البيزنطيين لشـــروط العرب طلبوا هدنة شهرا حتى يرووا فيه رأيهم . لكن عمرا أعطاهم مهلة ثلاثة أيام . لكن هذه المقابلة شـــاعت فى الحصـــن وثار المقاتلون البيزنطيون على

قيرس (المقوقس) . وصمموا على مواصلة القتال . فخرجوا للمسلمين بعد الأيام الثلاثة وأخذوهم على غرة الا أن المسلمين هبوا الدفاع عن أنفسهم واستبسلوا في هذه المعركة الحامية الوطيس حتى أثخنوا الروم قتلا . فتراجعوا مدحورين للحصن . وهذه الهزيمة السريعة جعلت قيرس يفكر جديا فى التسليم ولاسيما وأن المعارضين لفكرته قد لقوا درسا فوريا على أيدى الفاتحين ، ولم يعدوا متحمسين لمواصلة القتال . بل طلبوا من قيرس أن يعاود المفاوضات مع عمرو ولاسيما وأنهم محصورون داخل الحصن وقد طوقهم المسلمون به بعد استيلائهم على جزيرة الروضة وتسيدهم على النيل . فلم يعد من الممكن وصول الامدادات لهم . ولو خرجوا للعرب فهم هالكون لا محالة ولاسيما وأنهم دخلوا الحصن . فصالح قيرس عمرا على الجزية وكانت عام ٦٤٠ م وهذه أول اتفاقية بين المسلمين والبيزنطيين .

وفى هذا نجد أن عبادة قد وقع الاتفاقية مع قيرس الذى وقع عن الروم والقبط · واشترط موافقة الامبراطور بالقسطنطينية عليها . وكان القبط كما يقول ابن ظهيرة بلا خيار . وكان من شروط الصلح أن يدفع كل من فى مصر من الروم والقبط دينارين عن كل نفس فى كل سنة من البالغين شريفهم ووضيعهم واستثنى الشيوخ والاطفال والنساء والعبيد والمقعدون والرهبان من هذه الجزية . وأن لهم أرضهم وديارهم وأموالهم لا يعترضون فى شىء منها . وقدر عدد من سيطبق عليهم دفع الجزية بستة آلاف نفس . واعتبرت مصر قد فتحت صلحا لا عنوة . بعدها سار عمرو الى الاسكندرية لمواصلة الفتح . ويقول ابن ظهيرة فى (محاسن مصر والقاهرة) بأن ابن العاص عند رحيله من الحصن أمر بفسطاطه أن يقوض · فاذا يمامة

قد باضــت فى أعلاه فقال : لقد تحرمت بجوارنا . أقروا الفسطاط حتى تطير فراخها . فأقروه فى موضـعه فسميت مصر الفسطاط . وظل فى الاسكندرية ستة شهور حتى فتحها .

ووصــلت اتفاقية بابليون الى الامبراطور بالقســطنطينية وهاج . ولم يدر هل هذا الصــلح تقديم مال للعرب ويرحلون عن مصر أم معناه اســلام مصــر وبقاء العرب بها . وطلب حضــور قيرس ليحاســبه . الا أنه عزف عن مغادرة مصــر لأنه فعل ما هو الأصــلح ولم يخن ، الا أنه لو وصــل للامبراطور فلن يقبل منه هذا مهما علل موقفه أمامه . فهو على بينة كما يقول (بتلر) : اذا كان العرب قوما لا يشــبهون ســائر الناس فى شىء فهم لا يعبأون بأمر من أمور الدنيا ولا متاعها . ولا يطلبون منها الا لقمة يســدون بها رمقهم وشــملة يســترون بها أبدانهم . فهم قوم الموت يرونه ربحا فى أن الشهادة التى ينالون بها الجنة . فقال قيرس للامبراطور : لو رأيت هؤلاء العرب وبلاءهم فى القتال لعرفت أنهم قوم لا يغلبن فليس لنا من سبيل خير من الصلح مع عمرو وقبل ان يفتح حصن بابليون عنوة وتصبح البلاد غنيمة له .

لقد طال حصــار المســلمين للحصن لمدة سبعة شهور ولم يأت رد الامبراطور على الاتفاقية . وكان المســلمون مازالوا يحاصــرونه . ويقول اليعقوبى : بقيت ســاعة الهجوم ســرا ، فلما جاء وقتها أقبل الناس ســراعا تحت جنح الليل ووضــع الزبير ســلما على الســور ولم يفطن اليه أحد . فما شــعروا الا والبطل العربى (الزبير بن العوام) على رأس الحصــن يكبر وســيفه فى يده ، وتحامل الناس اليه من داخل الحصــن غير أن الســهام أمطرتهم من العرب فى خارجه ، واســتطاع بذلك

أصحاب الزبير أن يصلوا اليه فوق السلم ويطأوا أسواره بأقدامهم . والظاهر أن الروم كانوا يتوقعون هجوم العرب من ذلك الجانب فبنوا حائطا تعترض المشى فوق السور من جانبى ذلك الموضع . فلما جاء العرب الذين صعدوا الى الحصن وأناموا من كان هناك من حرسه (كان لهجوم ليلا) وملكوا رأسه وافلوا طريقهم مسدودة يعترضها ذلك الحائط . فلم يجدوا سبيلا الى السلم ليهبطوا منه الى قلب الحصن ، ورأوا أنفسهم قد بلغوا رأس الأسوار ثم لا سبيل لهم وراء ذلك .

الا أن قائد الحامية (جورج) طلب الصلح من عمرو بن العاص وتسليم الحصن فقبله عمرو ولكن الزبير خالفه قائلا : لو صبرت قليلا لنزلت من السور الى داخل الحصن ولكان الأمر على ما تشتهى . وكتب عمرو عهد الصلح على أن يخلى فى ثلاثة أيام فنزل الجنود الى النهر يرحلون تاركين أسلحتهم وذخائرهم وكان سقوط الحصن فى ٦ ابريل ٦٤١ م .

واكتشف المسلمون عند دخولهم الحصن أن به آلاف الاقباط المسجونين والذين كانوا يعذبون بالسياط لأنهم لم يغيروا مذهبهم ولم يدخلوا فى مذهب الروم . وحرروهم من سجنهم وأمنوهم على أنفسهم . ولقد وصف هذا الأسقف القبطى انين قائلا : ان فتح الحصن للمسلمين لم يكن الا عقابا من الله على ما فعله الروم من الأفاعيل فى القبط .

(٢)

أم المـــدائن

يعتبر تاريخ القاهرة هو تاريخ مصـــر الاســـلامية منذ الفتح الاســـلامى وحتى اليوم لأن مدينة الفســـطاط هى احدى ضواحى القاهرة الكبرى وكانت أول مدينة بناها العرب فى مصـــر لهذا يطلق عليها مصـــر القديمة أو العتيقة .

وكانت عاصمة مصر من قبل دخول العرب هى الاســـكندرية منذ عصـــر البطالمة عندما بناها الاســـكندر الأكبر . لهذا تعتبر الفســـطاط أم القاهرة وأقدم عواصـــم مصـــر الاسلامية الا انها نمت وتوســـعت لتضـــم مدن العســـكر والقطائع والقاهرة وظلت الفســـطاط يطلق عليها مصـــر الى أن أحرقت فى أواخر عهد الفاطميين عندما أحرقها الوزير شـــاور وحولها الى خراب . لهذا أخذت القاهرة اســـم مصـــر منذ انشـــائها وحتى الآن وقلما كان يذكر كلمة القاهرة فى كتابات المؤرخين العرب حتى مطلع هذا القرن .

والقاهرة حاليا هى عدة مدن متباعدة العصـــور ومتباينة الحضـــارات كما يقول المؤرخ (أولج فولكف) . لأن القاهرة نشأت

كمعسكر للحاكم الفاطمى والجند . شأنها شأن نشأة الفسطاط التى كانت مقرا لعمرو بن العاص وجنوده ، والعسكر التى كانت مقرا للوالى العباسى وجنوده بعد سقوط الدولة الأموية عام ٧٥٠ م والقطائع كانت مقرا لأحمد بن طولون وعساكره . فالفسطاط بمدنها الثلاثة أصلها مدن عسكرية وكان اتساعها محكوما عليه بالاتجاه الشمالى . لأن شرق المدينة كان هضبة المقطم والجبل الأحمر وغربها كان النيل وجنوبها كان بركة الحبش وهى مستنقعات ومخاضات وكان بها أديرة وكنائس متناثرة .

وكان اختيار عمرو بن العاص لموقع « الفسطاط » ضرورة استراتيجية وقد بين ستانلى لينبول فى كتابيه (تاريخ مصر فى العصور الوسطى وقصة القاهرة) حيث قال : لم تعد الاسكندرية العاصمة رغم أنها ميناء تجارى هام الا أنها أثناء الفيضان تصبح معزولة عن بقية أقاليم مصر ويصعب الاتصال بينها وبين المدينة المنورة عاصمة الخلافة . كما أن سكنى قوات الفتح فى مدينة حضرية يفقدها القدرة على القتال . والاسكندرية لكونها كانت عاصمة ترمز الى الحكم الرومانى الذى اضطهد المسيحيين الاقباط جعلهم يكرهونها . وقد أمر الخليفة عمر عمرو بن العاص باختيار مدينة فى مكان يتوسط مصر .

ولكن عمرو بن العاص كان يحلم أن تكون عاصمة الامارة الاسلامية الاسكندرية لأنه زارها أبان الجاهلية فأعجب بها . ولم يكن يدرى أن قدره مع هذه المدينة التاريخية . وأراد سكناها بعد الفتح فأرسل رسالة للخليفة عمر قائلا : منازل قد كفيناها فلما وصلت الرسالة للخليفة سأل حاملها : هل يحول بينى وبين المسلمين ماء ؟ أجابه : نعم يا أمير المؤمنين اذا جرى

النيل . لهذا أمر عمرو بن العاص باختيار مدينة لا يحول بينه وبين قوات الفتح ماء حتى يسهل نجدتهم من المدينة وتكون فى موقع سط ، لأن عمر كان لا يحب بالقوات أن تسكن المدن القائمة ويحبذ انشاء معسكرات لجنده حتى لا يتعودوا على حياة المدن وينصرفوا عن الجهاد . لهذا نجد الكوفة والبصرة بالعراق أصلهما مدنا عسكرية وكان يطلق عليها مدينة الجند . لهذا لما أقيمت الفسطاط كان يطلق عليها فسطاط الجند .

فاختار عمرو سهلا شمال حصن بابليون بشرق النيل وعلى مقربة من مدينة ممفيس (منف) العاصمة الفرعونية القدية جنوب الجيزة . وكان قد عسكر بها جنوده إبان حصار الحصن . فشرع فى اقامة مدينته التى سماها الفسطاط وجعل جامعه ودار الامارة فوق موقع الخيمة التى باضت فيها يمامة . وظلت هذه المدينة بضواحيها العسكر والقطائع عاصمة مصر لمدة ثلاثة قرون حتى أحرقت أبان الغزو الصليبى عندما دخلها الملك عمورى الصليبى فى حملته على القاهرة . ومنذ انشاء المدينة وحتى اليوم يطلق عليها مصر أو مصر القديمة .

وتعتبر مدينة الفسطاط وجامع عمرو أول اثر اسلامى بمصر وأفريقيا . وكانت الاسكندرية منذ بناها الاسكندر الأكبر عام ٣٣٢ ق.م عاصمة مصر البطلومية والرومانية والبيزنطية الى أن استولى عليها عمرو بن العاص . وكان الهدف من الابقاء على هذه المدينة الساحلية لموقعها الاستراتيجى على البحر الأبيض المتوسط . أن يسهل نجدتها من اثينا أيام الاغريق ومن روما أيام الرومان ومن القسطنطينية أيام البيزنطيين الروم .. وكان قد سكنها الاجانب ليسهل عليهم مغادرتها فى حالة اى ثورة على المدينة عن طريق البحر وهذا ما حدث عندما فتحها ابن العاص عام ٦٤١ م .

لهذا كان عمرو بن العاص بين أمرين لا ثالث لهما ، فلو اختار الاسكندرية فان وجوده بها سيكون معرضا لأى غزو من البحر يقوم به الاسطول البيزنطى الرابض وهذا ما حدث فعلا فيما بعد مما جعله يعيد فتحها عام ٦٤٦ م وقد استدعاه المصريون لنجدتهم بعدما عزله الخليفة عثمان فطلبوه منه .

والأمر الثانى انه سيكون بعيدا عن المدينة المنورة وأثناء الفيضان سيكون معزولا بالاسكندرية ولاسيما وأن ثمة أضرابا وجيوبا مازالت كامنة ببقية أقاليم مصر وهم من البيزنطيين وبعض الأقباط الذين كانوا يعارضون الفتح الاسلامى . ولم يكن عمرو قد أخضع كل مصر لسيادته ولاسيما الصعيد والنوبة وشمال الدلتا . كما أن قرار الخليفة بعدم عزل القوات الاسلامية بموانع مائية ليسهل نجدتها فى حالة الثورة أو الحصار كان قرارا استراتيجيا لا مناص منه .

فكان اختيار عمرو بن العاص شرق النيل عند حصن بابليون قرارا واقعيا . فلقد سبق أن وصلته نجدة الخليفة بقيادة الزبير بن العوام ووصلت عين شمس . كما أن مكان الفسطاط مفتوح على الصحراء ويفضى اليها بلا أى موانع أو حواجز ولاسيما وأن الطريق يخضع بالكامل لسيادته . فالطريق يعتبر مفتوحا للمدينة المنورة من خلال اتصال أرضى لا ينقطع عبر سيناء .

واختار هذا المكان الصحراوى لتشعر قواته أنها مازالت على بداوتها لهذا كان تصميمه على أن يسكن جنده هذه الصحراء حتى لا يفقدوا روحهم القبلية . وكان بعض الصحابة قد أشاروا عليه بسكنى (منف) العاصمة المصرية القديمة

ولا سيـما وانها تتوسـط مصر العليا ومصر السـفلى الا أنه عارضـهم لأن النيل سـيكون حاجزا بينه وبين الصحراء بالشرق رغم أنها ستسهل له الاتصـال بين الوجهـين فى الغـرب من النيل .

كما كان اختيار موقع الفسـطاط ضـرورة حتمية اقتنع بها عمرو بن العاص ولم يغيرها حتى عندما تولى الولاية للمرة الثانية أيام معـاوية وكان بيده الأمر والنهى بمصـر . حتى أنه كان يعتبر ولايته حكما ذاتيا حيث لم يخضـع لمعاوية الا اسـميا حتى مات فى ٦ يناير عام ٦٦٤ م ودفن بمصر .

وكان موقع الفسـطاط موقعا استراتيجيا . فلقد قامت فوق عدة تلال وفى سـهل صـحراوى شـمال حصـن بابليون يحدوه جبل المقطم شـرقا والنيل غربا ومخاضـة بركة الحبش جنوبا . وكان يصـعب على أى قوات مداهمة المدينة من النيل أو الجنوب أو الغرب . أما الشمال فصحراء يجيد العرب الحرب فيها ولا يتفوق البيزنطيون عليهم فى فنونها البرية . كما ان الحصن مازال موجودا ويعتبر حصن المدينة الاسلامية .

وكانت بركة الحبش بجنوب الفسـطاط يفيض بها النيـل ابان الفيضـان ثم تنحسـر عنه المياه وتصـبح أرضـا مزروعة رغم وجود بعض المستنقعات بها . وكانت تمد المدينة بالخضراوات والفواكه والحبوب وتعتبر احدى روضات مدينة الفسطاط وأطلق عليها بركة الحبش لأن رهبان الحبشـة كانوا يقطنـون فى دير بها . ولقد وصـف موسى بن عيسى والى مصـر أيام هارون الرشـيد والذى تولى الولاية عام ٧٨٧/١٧١ هـ منظر الفسـطاط من ناحية بركة الحبش فقال لحاضـريه : ترون ما أرى ؟ أرى عجبا ما هو فى شىء من الدنيا . أرى ميدان رهان وجنان نخل

وبستان شـجر ومنازل سـكن ودور جبل وجبانة أموات ونهرا عجاجا وأرض زرع ومراعى ماشـية ومرتفع خيل وحسـن وملاح سـفينة وحادى ابل ومغـارة رمل وسـهلا وجبلا فهذه ثمانية وعشـرون متنزها فى أقل من ميل فى ميل . هذه هى الفسطاط بعد قرن ونصف تقريبا .

ومدينة الفسـطاط عند انشـائها كانت مدينة مكشـوفة الا أنها بموقعهـا الاسـتراتيجى كانت مدينة حصـن . وكان يطلق عليها قبل امفتح مدينة (بابليون) . وكانت مدينة بها شـيئا من الازدهار العفوى حيث كان يعسـكر بها حامية بيزنطية وكانت منازلها متبعثرة وبها حصـن تراجان (بابليون) وكان فى شـمالها قناة تراجان التى كانت توصـل المياه للحصـن وفى شـرقها جبانة حجرية رغم أن بيوتها من الطوب اللبن . ولم تكن مدينـة حضـرية سـكنية وشـمالها سهل صحراوى منبسـط به قريتا أم دنين ومصـر . وكان الحصن بالجنوب حوله مدينة الشمع .

فكان موقع فسـطاط عمرو انسـب موقع لاقـامة مدينة الجند واقامة المسـجد الجامع ودار الامارة . فلهذا شيدت على نظام المدينة المنورة فقسـمت الى خطط وكل قبيلة قد سكنت فى خطة (حارة) وبنوا فيها بيوتا أشـبه بالأكواخ ومن دور واحد وحول كل بيت فضـاء . فكان بها خطط الفارسـيين الذين أسلموا وحاربوا وأهل الراية واللفيف وأهل الظاهر . وكان خطة أهل الظاهر معسـكر اسـتقبال الوافدين من الجند الجدد يقيمون فيه حتى يوزعوا على خطط أهليهم من القبائل . وكانت البيوت حولها فضاء صحراوى ليشعر أهلها أنهم يعيشون فى الصحراء .

وقد وصـف ناصـر خسـرو مدينة الفسـطاط التى زارها عام ١٠٤٧ م فقال : شـيدت مصـر (الفسطاط) على

ربوة خشية فيضان الماء وكانت مغطاة فى وقت ما بأحجار كبيرة ، فسرت وسويت ويقال للأماكن التى لم تسو عقبة . وتبدو مصر كلنها جبل حين ينظر اليها من بعيد . وكانت الفسطاط وقتها تضم العسكر والقطائع والقاهرة التى كانت قد انشئت لأن خسرو زارها فى العصر الفاطمى .

وقد وصف المقدسى الفسطاط أيضا حيث بين أن منازلها كانت مرتفعة لعدة طوابق وانها مدينة تجارية هامة بها بضائع الدنيا وأسعارها رخيصة وكان من رواجها كما يقول القلقشندى أيضا أنها خلت من الفقراء مما يصعب توزيع الزكاة لقلتهم . وكان سعيد بن جبير قد وصف الفسطاط فى رحلته بعد الحريق وكان فى طريقه للحج فقال أول ما تلاحظه العين قذارة المدينة القديمة . وبمدينة مصر الفسطاط آثار من الخراب الذى أحدثه الاحراق الحادث بها وقت الفتنة عند انتساخ دولة العبيد بين الفاطميين وذلك سنة ٥٦٤ هـ ، واكثرها الآن مستجد والبنيان بها متصل وهى مدينة كبيرة ولا ينزل بها مطر الا فى النادر وترابها ينتن الارجل . وهو قبيح اللون تستكدر منه أرجاؤها ويسوء بسببه هواؤها .

وقال أيضا : ولما اقبلت على الفسطاط أدبرت عنى المسرة .. وتأملت أسوارا مثلمة سوداء وآفاقا مغبرة . ودخلت من بابها وهو دون غلق يفضى الى خراب معمور بمبان مشتتة الوضع غير مستقيمة الشوارع وقد بنيت من الطوب الأدكن والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة . وحول أبوابها من التراب الأسود والأزبال . ما يقبض نفس النظيف ويغض طرف الظريف .. فسرت الى أن صرت فى أسواقها الضيقة . فقاسيت من ازدحام الناس فيها .. الى أن انتهيت الى المسجد الجامع ..

وكان ابن جبير قد زار ساحل الفسطاط فرآه كثير العمارة بالمراكب وأصناف الأرزاق التى تصل من جميع أقطار النيل .. والنيل هناك ضيق لكون الجزيرة التى بنى فيها سلطان الديار المصرية قلعته . وكان بين الفسطاط وجزيرة الروضة جسر من المراكب وبينها وبين بر الجزيرة جسر آخر . الا ان معظم الأهالى كانوا يعبرون النيل فى القوارب والمراكب بذويهم . لأن عبور الجسرين المؤديين لقلعة (قصر) السلطان يكون للراجلين وليس للراكبين) .

وكان المؤرخون الذين زاروا الفسطاط والرحالة قد صوروا الفسطاط بأنها مدينة تجارية وصناعية . حيث كان يصنع بها الصابون والسكر ومع هذا كان الخراب بها كثيرا .

ويرتبط خليج أمير المؤمنين الذى شقه عمرو بن العاص فى شمال الفسطاط ليصل الى السويس وكان متصلا بالنيل هناك . وسبب وصفه كما يقول ابن الظهيرة : انه لما جدبت المدينة عام الرمادة ١٧ هـ أرسل الخليفة عمر الى عمرو بالفسطاط قائلا : واغوثاه ! واغوثاه ! ما تبالى أن سمنت ومن قبلك أن أعجف أنا ومن قبلى . فرد عليه عمرو قائلا : لبيك ابل تترى أولها عندك وآخرها عندى برا وبحرا . وندم على ذكر البحر . الا أن الخليفة رد عليه قائلا : فأن الكلمة (البحر) التى فاهت منك فقد ندمت عليها ، والله لأن لم ترسن من البحر لأرسلن اليك من يقتعلك أذنيك . وما كان ابن الخطاب يمزح . فأرسل ابن العاص المدد بحرا معتذرا على تأخر الميرة لبعد البحر عن الفسطاط . فسأله ابن الخطاب : عرفنى كم بينك وبين البحر (يقصد البحر الأحمر) فرد عليه قائلا : مسيرة ليلتين . فأمره الخليفة بالحفر من النيل للبحر ولو أنفق جميع مال مصر . فحفر الخليج .

ويروى ابن اياس فى بدائعه قائلا : لما استقل عمرو بن العاص بمصر جاء اليه القبط وقالوا له : أيها الأمير . (كان الولى يلقب فى كل ولاية بأمير الجند) . ان لنيلنا سنة كل سنة لا يجرى الا بها . فقال لهم : وما هى ؟ فقالوا له : اذا كان ليلة اثنى عشر من بؤونة (شهر قبطى) عمدنا الى جارية بكر وأخذناها من أبوابها غصبا أو رضا وجعلنا عليها الحلى ثم نلقى بها فى بحر النيل فى مكان معلوم . فرفض عمرو لأن هذا ليس فى الاسلام الا أن النيل لم يفض .

فلما حدث هذا أبلغ الخليفة عمر . فرد مع رسوله ببطاقة وطلب منه أن يلقيها فى النيل جاء فيها : بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر بن الخطاب الى نيل مصر المبارك . ان كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الله تعالى أن يجريك والقى عمرو البطاقة فى النيل كما امره الخليفة . قبل عيد الصليب بيوم واحد (١٧ توت) . فرأى المصريون ان النيل فاض . وكان فى جزيرة الروضة أمام الفسطاط يوجد مقياس النيل وهو عبارة عن عمود مدرج وكان به موظفون يقيسون ارتفاع منسوب المياه به . وهذا المقياس مازال موجودا الى الآن .

وفى سنة ٢٤ هـ أنشئت دار الصناعة بالروضة لصنع السفن الحربية لكثرة هجوم البيزنطيين على ثغر دمياط وتهديد الاسكندرية بحرا بأسطولهم . لهذا قال المقريزى : أطلق على جزيرة الروضة جزيرة الصناعة أو جزيرة مصر . علاوة على وجود دارى صناعة فى البحر الأحمر والاسكندرية . وكانت السفن تصنع من أشجار السنط التى كانت متوفرة بمصر ولاسيما فى البهنسا .

وكانت الفســـطاط رغم خضـــوعها للدولة الأموية عام ٣٨ هـ وكانت تابعة لدمشـــق وقتها الا أنها كانت موئلا للخوارج والزبيريين والشـــيعة . واســـتطاع الزبيريون الســـيطرة على الفســـطاط عام ٦٤ هـ وأعلنوا تبعيتها للخلافة الزبيرية التى أعلنها عبد الله بن الزبير بمكة . وهذا ما جعل الخليفة الأموى مروان بن الحكم يرسل جيشـــا بقيادة ابنه عبد العزيز لوأد هذه الفتنة .

وابان خلافة مروان بن محمد الأموى كانت الفســـطاط قد شـــهدت صـــراعات قبلية بين المضرية واليمنية . وكان الوالى الجديد حســـان بن العتاهية وهو مضـــرى قد جاء وعزل الوالى حفص بن الوليد الا أن الجنود المضـــرية ثاروا لأنه منهم وطالبوا بعودته . فحاصـــروا دار الامارة وعزلوا حسان بعد ١٦ يوما من توليه . وهذا ما جعل الخليفة مروان يرســـل حوثرة بن سهيل الباهلى ودخل بجيشـــه الفســـطاط وقتل زعماء الثورة اليمنية ودعاة الخوارج معهم .

وعندما انهزم الخليفة مروان أمام العباســـيين فى موقعة الزاب فر الى الفســـطاط فلما بلغ غزة أمر باخلاء واحـــراق الفســـطاط فى ثلاثة أيام ثم عبر النيل الى الجزيرة بعدها أحرق كل المراكب حتى لا يعبر بها خلفه . وأحرق الجســـرين اللذين يصـــلان الفســـطاط بالروضـــة والجـــزيرة بالروضـــة . وهذا الحريق أثار المصريين ضد مروان مما جعلهم يرحبون بالعباسيين

الا أن القائد العباسى أبو صالح بن على لما دخل الفسطاط بقواته عام ١٣٣ هـ/٧٥٠م عاث جنوده فيها فســـادا ونهبوا الدور وحطموا كل شىء . وقتل مروان وأرســـلت رأســـه للخليفـــة العباسى .

وبعد حريق المدينة لم تهدأ بها الثورات ضد الولاة العباسيين أو بين القبائل العربية والأقباط . وكانت القوات العباسية بمدينة العسكر الجديدة تحصد رؤوس آلاف الثوار وتعلقها فى جامع عمرو . ولم تهدأ هذه الفتن الا بمجىء احمد بن طولون عام ٨٦٠ هـ فطوال ١١٠ سنة من الحكم العباسى لمصر عام ٧٥٠ م . لم تهدأ الثورات والفتن التى كان وراءها الجمعيات السرية بها ، وكانت تضم الشيعة والملاحدة والفرس . وكان الوالى العباسى أبو صالح أول من واجه الفتن والسرقات التى تفشت فى المدينة ومنعها . وكان يفخر أنه أمن الفسطاط وأشاع بين أهلها بأن يغلق كل واحد باب بيته أو حانوته بستارة من شرائح القصب حتى لا يدخلها الكلاب من الأبواب وجعل الحمامات بلا حراسة . ويقول الكندى فى (الولاة) بان أبا صالح قال : من ضاع له شىء فعلى اداؤه . فكان الرجل يدخل الحمام . فيضع ثيابه ويقول : يا أبا صالح احفظها . ولم يجرؤ أحد على الاقتراب منها .

وكانت سياسة الخلافة منذ عهد المعتصم العباسى التخلص من القبائل العربية فى جيوش الخلافة . فقطع أرزاقها من بيت المال بالفسطاط وهذا ما جعل هؤلاء العرب يسيحون بالبلاد تاركين المدينة ليعملوا ويزرعوا الارض ويكسبوا أرزاقهم . فاختلطوا بالمصريين وأثروا فيهم بمعاملتهم الطيبة وسماحتهم وكرم أخلاقهم فأحس القبط بهذا وتعايشوا معا فى سلام وأسلم الكثيرون حتى أصبحت مصر أغلبية اسلامية شاعت بينها اللغة العربية . فرب ضارة للعرب نافعة للاسلام .

وكان الوالى بمصر نائبا عن الخليفة ويطلق عليه أمير مصر . وفى أيام العباسيين بصاحب اقطاع مصر ، لأنه

كان نائبا عن الخليفة أو الأمراء أو القواد الذين كان من بينهم من انعم عليه باستغلال خراج مصر كاقطاعية له ينيب عنه واليا . وكان يطلق على الوالى أمير الصلاة لأنه نائب عن الخليفة لامامتها . ولم يكن قبل العصر العباسى له سلطة جمع الخراج لأن الخليفة كان يعين عمالا لجمعه . لهذا كان الوالى بلا سلطة على عامل الخراج الذى كان يتبع الخليفة رأسا . لكن كان صاحب الشرطة تابعا للوالى وله حق تعيينه . كما أن الوالى كان له امارة الجند حيث كانت الحامية العسكرية تخضع لأوامره . وعمرو بن العاص كان قد جمع بين الامارة والخراج أيام ولايته لمصر . وكثير من الولاة بالفسطاط كانوا يتغيرون الا أن قليلين من عمال الخراج ما كانوا يتغيرون . لأن الولاة كانوا بأيديهم الجند فكان الخلفاء يخشون تمردهم عليهم أو يستعملونهم ضدهم .

وفى عصر الفتح كانت مدينة الفسطاط اغلبية مسلمة بينما كانت مدن مصر اغلبية قبطية ، لهذا ظل العرب يطلقون على الأقباط المصريين حتى القرن الثانى الهجرى .

وهناك مقولة أن الأقباط رحبوا بقوات الفتح الاسلامى ولم يعاونوا المسلمين على فتح مصر ، وهذه المقولة مغرضة الى حد ما . لأن البيزنطيين قد جاءوا بأسطولهم عام ٦٤٥ م ونزلوا الاسكندرية والدلتا . فطالب المصريون من الخليفة عثمان أن يرسل عمرو بن العاص وكان قد عزله لأنه أعلم بالبيزنطيين فأرسله وطردهم وأمن مصر .

وكان عمرو بن العاص قد عين ربيعة بن شرحبيل لتحصيل المكس فى ثغر أم دنين شمال الفسطاط فكان مقره المقس . وأصل

الكلمة المكس التى كانت تحصـــل على البضـــــائع الداخــلية للفســـطاط .

وكان بالمدينة ديوان للجند وقد انشأه عمرو بن العاص حيث دون به قوات الفتح حسب قبائلهم لصـــرف الأرزاق لهم . وكان كل يوم يدور اناس مخصصون على مجالس القبـــائل ليحصـــوا المواليد والأموات والضـــيوف وبينوا ذلك فى ســــجلات ديوان الجند وظل الديوان يعطى الرواتب للعرب . وفى العصر العباسى كان قاصـــرا على اعطاء الرواتب للجنود الاتراك والفرس بمصر والذين كانوا يحمون الوالى والولاية من الفتن الداخلية والثورات .

وشـــهدت الفســـطاط الفتنة بعد مقتل الخليفة عثمان عندما تســـيدها العلويون وشيعتهم عام ٣٨ هـ فأرســـل لهم معاوية عمرو بن العاص ودارت بينه وبين محمد بن أبى بكر معركة حامية عند المناة شـــمال الفســـطاط وقتل فيها ابن سيدنا أبى بكر . وانتصـــر ابن العاص وأصبحت مصر تابعة لمعاوية بدمشق .

كما شـــهدت المدينة محنة خلق القرآن التى ابتدعها المأمون العباسى واتبعها المعتصـــم من بعده عندما ارســـل الى واليه بالفسطاط كيدر نصر كتابا عـــام ٢١٨ هـ وطلب فيـــه امتحـــانه لقاضى مصـــر والفقهاء والمحـــدثين فى مسألة خلق القرآن وأن يقروا أمامه أن القرآن مخلوق وليس مطبوعا فى اللوح المحفوظ ولا يســـمح لأى شخص بممارسة القضاء أو الفتوى أو الحديث الا بعد أن يقر بأن القرآن مخلوق .

وكانت مســـألة خلق القرآن بدعة ابتدعها المعتزلة وتبناها الخليفة العباسى المأمون وجعلها مذهب الخلافة ، وحتى الشهادة أمام القضـــاة كان لابد أن يقول الشـــاهد بأن القرآن مخلوق قبل

أن يدلى بشـــهادته والا رفضـــت . وكان أحمد بن حنبل قد رفضـــها وســـجن بسبب هذا الرفض وعذب . ولما تولى الواثق العباسى أمر قاضى الفســـطاط محمد بن الليث امتحان الناس جميعا فى مصـــر ولم يبق أحد لم يؤد هذا الامتحان وكتب على مســـاجد الفســـطاط (لا اله الا الله رب القرآن المخلوق) . وظلت هذه المحنة قائمة حتى أبطلها المتوكل العباسى عام ٢٣٤ هـ . وكان كل من لا يقر بهذه المسألة يعتبر من الزنادقة ويســـجن ويعذب .

وفى ولايتى عبد العزيز بن مروان ومسلمة بن مخلد لمصر بنيت كنيســـتا مار جرجس وأبو قير داخل قصر الشمع وجددت كنيسة القديس مرقص .

وفى أواخر العصـــر الفاطمى شـــهدت الفســـطاط الحريق المروع الذى وصـــفه لنا ابن اياس فى بدائعه قائلا : أيام العاضد (الفاطمى) اســـتولى الفرنج على الديار المصـــرية ودخـــلوا بمراكبهم الى بحر النيل ونزلوا على مدينة الفســـطاط بالقرب من بركة الحبش . فأحط الفرنج بمدينة الفســـطاط وأشـــرفوا على أخذها . وكان ملك الفرنج يســـمى مرى (عمورى أو أمالوريك) . وكان معه ســـبعين مركبا مشـــحونة بالمقاتلين (الصليبيين) . فلما رأى الخليفة العاضـــد عين الغلب وصـــار الفرنج يأسرون جماعة من المســـلمين وينهبون أموالهم وقرروا على أهل مصـــر والقاهرة أموالا جزيلة وأخذوا فى أســـباب جبايتها . فعند ذلك أشـــار الوزير شـــاور على الخليفة بحرق مدينة الفســـطاط خوفا من الفرنج أن يملكوها . فأذن له الخليفة بحرقها . فجمع الوزير العبيد وأحرقوها . وكانت القـــاهرة فى غاية العمارة والتحصـــين . فلما أحرقت مدينة الفســـطاط تحول الناس الى القاهرة . وقيل بلغ كراء الجمل من مدينة الفســـطاط الى القاهرة

عشرة دنانير لكل نقلة . وصارت النار عمالة فى مدينة الفسطاط واحد وخمسين يوما حتى صار الدخان يرى على مسيرة ثلاثة ايام . فلما راى الفرنج ذلك خافوا ورحلوا عن مصر ..) .

وكان هذا الحريق عام ٥٦٤ هـ/١١٦٨ م الا أن اسد الدين شيركوه عم صلاح الدين الايوبى لما تولى الوزارة قبض على شاور وصلبه على باب القاهرة لانه اشار على الخليفة باحراق هذه المدينة التى نكبت . وكأن هذا الحريق فأل نحس للعاضد الذى انتحر بابتلاع فص ماسى بعدما سمع بأن اسمه قد قطع من خطبة الجمعة وذكر اسم الخليفة العباسى ، لان صلاح الدين الأيوبى قد قضى على الخلافة الفاطمية بعد حريق الفسطاط بثلاث سنوات .

واصبحت الفسطاط مدينة اشباح خاوية على عروشها عدة قرون وفقدت اهميتها كعاصمة التجارة والمال والصناعة ولم يبق منها سوى جامع عمرو بن العاص الذى أنقذ من هذا الحريق المشهود والذى ظل بالمدينة ٥٤ يوما . ونزل أهالى الفسطاط بالقاهرة فى الحمامات والأزقة والمساجد . وكان شارو بعد ما أمر باحراقها بالنفط وأصبحت هذه المدينة المحترقة كيمان كما يقول المقريزى .

(٣)

الجـــامع العتيـــق

عندما أنشأ عمرو بن العاص مدينة الفســطاط أقام مسجده الجامع عام ٦٤١ م/٢١ هـ وهو فى مكان كان ينصــب فيه رايته أثناء حصــار حصــن بابليون لهذا أطلق على ميدان الجامع ميدان الراية . وكان يســكن حوله أهل الراية وهم من قريش الذين كانوا يحملون راية المســلمين أثناء الحصــار . وكانوا قد ضربوا الخيام فى هذا المكان .

وقصــة بناء جــامع عمرو أن امرأة يهودية كانت تمتلك الأرض وطلب منها عمرو شــراءها فرضــت . ولم يجبرها على البيع الا أنه تحايل عليها بدهائه . فطلب منها شــراء قطعة فى مســاحة جلد ثور فوافقته . لكن عمرا لم يخنه دهاؤه . فقطع جلد الثور الى أحبال رفيعة (فتائل) وربطها فوق الأرض وحدد بها مســاحة الجامع التى أقام عليها مسجده .

ويقول ابن ظهيرة فى (محاسن مصــر والقاهرة) عن الجامع العتيق :

بناه عمرو بن العاص ســوى ما تجدد فيه بعده .. وأن طوله خمســين ذراعا فى عرض ثلاثين) . وكان الجامع مستطيلا

طوله ٢٨ مترا وعرضـــه ١٧ مترا وســـقفه منخفضـــا وكان من ســـعف النخيل ولم يكن به مئذنة ولا منبر وواجه عمرو مشكلة تحديد القبلة ويقول ابن ظهيرة : انه وقف على اقامة قبلته ثمانون ســـحابيا من بينهم الزبير بن العوام والمقداد بن الاســـود وعبادة بن الصـــامت وأبو الدرداء وأبو ذر الغفارى وغيرهم لتحديدها) .

وكان للمســـجد بابان مقابلان لدار عمرو وبابان بحـــريان وبابان غربيان . وكان الجامع الغربى محاذيا لدار عمرو (دار الامارة) ووصـــف ابن ظهيرة بقية الجامع قائلا : كان طوله من القبلة الى بحـــرية مثل طـــول دار عمرو وسقفـــه مطأطئا جدا ولا صـــحن له . وكان الناس يضـــيقون بفنائه . وكان بينه وبين دار عمرو ســـبع أذرع وكان الطريق محيطا به من جميع جهاته .

ولما اتخذ عمرو به منبرا طلب منه الخليفة عمر كســـره قائلا له : اما بحســـبك أن تقوم فيه قائما والمسلمون تحت قدمك فكسره ابن العاص .

وأول من وســـع فى الجامع مســـلمة بن مخلد والى معاوية سنة ٥٣ هـ / ٦٧٣ م وأضـــاف له رواقـــا فى الشـــمال وكسى أرضيته بالحصر وأقـــام المآذن ليؤذن فوقها المؤذنون بدلا من قرع الأجراس الخشبية ولا سيما فى صلاة الفجر .

ووســـع فيه عبد العزيز بن مروان عام ٧٩ هـ/٦٩٨ م . وكان والى مصر وقتهـــا من قبل الوليد بن عبد الملك . لكن الوليد بعد ذلك كلف واليه قرة بن شـــريك العبسى بهدمه عام ٩٢ هـ/ ٧٠٩ م واعادة بنائه . وكان المصـــلون يصـــلون الجمعة وقتها فى قيســـارية العســـل قرب دار الامارة حتى فرغ من بنائه فى رمضان ٩٣ هـ/٧١٠ م . ونصـــب بالمبنى الجديد منبر وأقيم فيه

محراب مجوف للقبلة سمى بمحراب عمرو لانه كان على هيئة المحراب القديم الذى لم يكن مجوفا . وأصبح طول الجامع ١٩٠ ذراعا بدلا من ٥٠ ذراعا .

وخلال العصور اللاحقة عنى بالجامع ففى ولاية عبد الله ابن طاهر ايام المأمون العباسى ضاعف فى مساحة المسجد عام ٢١٢ هـ/٨٢٧ م . واضيف للمسجد اضافات من بينها غرفة المؤذنين فوق السطح والتى اقامها القاضى العجيفى والفوارة والسقف الخشبى حولها عاه ٣٢٧ هـ/٩٨٨ م أيام الحاكم بأمر الله الفاطمى . وكان قد أمر باقامة رواقين فى صحن الجامع وقلت لهذا العمد الخشبية التى أقامها أحمد بن طولون . وأيام المستنصر الفاطمى أزاد فى سعة المقصورة من جانبيها الشرقى والغربى وطوق المحراب بطوقين من الفضة وذهب حائط القبلة وحول المنبر ثم اقام مئذنة جديدة . وظل الجامع على هيئته بعد حريق الفسطاط الى ان جدده مراد بك شيخ البلد عام ١٧٩٢ م واصبح على هيئته حتى الآن الى أن جدد أخيرا .

وكان يطلق على جامع عمرو جامع الفتح أو الجامع العتيق أو تاج الجوامع أو جامع الفسطاط أو الراية . ولما أنقذ من الحريق أصيب ببعض الأضرار فقام صلاح الدين الأيوبى بتجديده فأعاد صدر الجامع والمحراب الكبير ورخمه كما يقول المقريزى . ويعتبر الجامع اقدم أثر اسلامى بأفريقيا .

وأيام الفاطميين كان الرحالة الفارسى ناصر خسرو قد زاره عام ١٠٧٤ م . وكانت زيارته قبل الحريق . وفوصفه قائلا : فى وسط سوق مصر (الفسطاط) جامع يسمى باب الجوامع ... وهذا المسجد قائم على أربعمائة عمود من الرخام . والجدار

الذى عليه المحراب مغط كله بألواح الرخام الأبيض التى كتب القرآن عليها بخط جميل ، ويحيط بالمسـجد من جهاته الأربع الأسـواق وعليها تفتح أبوابه . ويقيم بهذا المسـجد المدرسـون والمقرئون . وهو مكان اجتماع سـكان المدينة الكبيرة ولا يقل من فيه فى أى وقت عن خمسـة آلاف من طلاب العلم والغرباء والكتاب الذين يحررون الصكوك والعقود وغيرها) .

ويروى خسـرو رواية طريفة عن الحاكم بأمر الله الذى اشـترى المسـجد من أحفاد عمرو بن العاص . وكانوا قد ذهبوا اليه قائلين : نحن فقراء معوزون وقد بنى جدنا هذا المسـجد . فاذا أذن السـلطان نهدمه ونبيع أحجاره ولبناته . الا أن الحاكم اشتراه منهم بمائة الف دينار وأشهد عليهم أهل مصر .

ولما حاول هدمه وتجديده رفضـوا قائلين : لقد بعنا لك الجامع ولم نبع لك المآذن فعوضـهم عنها ، وهذه القصـة رويت أيضا عن أحفاد أحمد بن طولون وجامعه . الا أن هذه القصـة مدعاة للشـك ولا سيما وأن خسرو كان من غلاة ودعاة الفواطم . لأن المساجد لله وهى بيوته سبحانه وتعالى .

وكان الحاكم قد أقام بالجامع ثريا فضـية (نجفة كبيرة) لها ١٦ ذراعا جانبيا على شـكل دائرة نصف قطرها ٢٤ ذراعا (قياس) ووزن هذه الثريا ٢٥ قنطارا فضـة أى أكثر من طن وزنا وبها ٧٠٠ قنديل ولما حاول العمال ادخالها لم يسـعها الباب فخلع من مكانه وبعد ادخالها وضـع كما كان . وفرش المسـجد بعشـر طبقات من الحصر الملون . وكان المسجد يضاء كل ليلة بمائة قنديل .

وجامع عمرو حاليا مسـاحته أربعة أمثال مسـاحته عند انشـائه ويختلف فى شـكله وهيئته عن المسـجد القديم .

ومازال له شـــهرته بالقاهرة . وكان ســـلاطين مصـــر وملوكها يفضـــلون صـــلاة الجمعة اليتيمة به فى رمضـــان . وكان المشايخ والقساوسة والاحبار يصـــلون فيه صـــلاة الاستسقاء ليفيض النيل حاملين القرآن والانجيل والتوراة .

وظل جامع عمرو مقر بيت المال حتى نقله المعز الى جامع ابن طولون وكان يجلس به القضـــاة والفقهاء ليدرســـوا علوم القرآن والتفســـير وكثيرا ما كان الفقهاء يحتدون معا فى مناقشاتهم مما جعل الاخشـــيد يغلق الجامع فترة ولم يكن يفتح الا للصلاة فقط .

وكان ابن جبير قد زار جامع عمرو بعد الحريق بفترة وجيزة فوصفه قائلا : عاينت جامعا كبير البناء غير مزخرف ولا محتفل فى حصـــره التى تدور مع بعض حيطانه وتنبســـط فيه . وبصرت العامة رجالا ونســـاء قد جعلوه معبرا . بأوطئة اقدامهم يجوزون فيه من باب الى باب ليقرب عليهم الطريق . والبياعون يبيعون فيه أصـــناف المكســـرات والكعك وما ســـوى ذلك . وعدة صبيان بأوانى ماء يطوفون على كل من يأكل . قد جعلوا ما يحصـــل لهم منه رزقا . وفضـــلات مأكلهم مطروحة فى صـــحن الجامع . وفى زواياه العنكبوت قد عظم نســـجه فى السقف والأركان والحيطان . والصـــبيان يلعبون فى صـــحنه . وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمرة بخطوط قبيحة مختلفة .. الا أن مع ذلك . على الجامع المذكور الرونق وحســـن القبول وانبســـاط النفس مالا تجده فى جـــامع اشـــبيلية (بالأندلس) مع زخرفته . والبســـتان فى صحنه . واســـتحسنت ما ابصـــرته من حلق المتصـــدرين لاقراء القرآن والفقه والنحو فى عدة اماكن . وكان ابن جبير قد زار مصـــر وهو فى طريقه للحج أيام صـــلاح الدين الأيوبى .

وكان جامع عمرو مقر متولى الخراج أيام الدولة العباسية التى كانت مصـــر تعتبر اقطاعية لها فكانت الأراضى الزراعية تؤجر ســـنويا بنظام قبالة الأراضى . ويقول المقريزى : كان متولى خراج مصـــر يجلس فى جامع عمرو بالفســـطاط حيث يجتمع الناس من القرى والمدن ، فيقوم رجل ينادى على البلاد (الناحية) صـــفقات صـــفقات (كالمزاد) . وكتاب الخراج بين يدى متولى الخراج يكتبون ما ينتهى اليه مبالغ الكور (كانت مصر مقسمة كورات) والصـــفقات على من يتقبلها الناس) . وكان استئجار الأرض لمدة ٤ ســـنوات . وهذا النظام عرف بالالتزام . وكان الملتزم يخرج ويقوم بزراعة الأرض واصـــلاح الجســـور ويســـتخدم من يراه فى العمل بأرضـــه . وما عليه ســـوى دفع اقســـاط الالتزام فى مواعيدها حتى يوفى مبلغ القبالة . وظل هذا العمل ســـاريا بجامع عمرو حتى نقل أحمد بن طولون القبالة فى جامعه .

والقبالة هى التزام شـــخص بدفع ضـــريبة الخراج مع خصـــم عمارة الجســـور الزراعية وكانت هذه الضـــرائب العباســـية قد جعلت الوالى ضـــامنا لخراج مصر بدفع مبلغ ثابت ســـنويا لبغداد أو لصـــاحب اقطاعية مصـــر وكان يحدده الخليفة من بين الأمراء والقواد الكبار ، لكن هذا النظام الغى عندما طبق الروك الســـلطانى أيام صـــلاح الدين حيث اقتطعت الأرض وكانت توزع على لســـلطان والأمراء والجنود وظل هذا النظام الالتزام والقبالة حتى فى عهد محمد على أصبحت مصر اقطاعية وطبق نظام الروك .

وكان القاضى بجامع عمرو يســـمح للقبط واليهود بدخول الجامع لعرض قضـــاياهم لأن محاكمهم الخاصـــة بهم لم تنصفهم ويعتبر حكمه نهائيا وملزما لجميع الأطراف .

وكان الخليفة ســـواء فى المدينة أو دمشـــق أو بغداد يعين قاضى مصــــر ومقره جامع عمرو . وكان نادرا ما يتغير القضاة . وكانوا يتبعون للخليفة رأســـا . وكان القضـــاء مســـتقلا تماما عن الوالى . وله الحق فى تعيين نوابه ومعاونيه وينفق عليهم رواتب من بيت المال .

وكانت تعقد مجالس القضـــاء فى جامع عمرو بدار العدل فيحكمها فى الأمور المدنية والجنائية والشـــرعية ، وقد يرجع القاضى للخليفة ليحكم فى مسألة لضـــمان العدالة . وكان التظلم من حكم القضـــاة للخليفة رأســـا لانصـــاف المظلومين . ومنذ العصـــر العباسى كان يوجد قضـــاة يحكمون حســـب المذاهب الأربعة . وكانت الأحكام تدون . وكانت مهمة القاضى تحـــديد رؤية الهلال فى رمضـــان والعيدين وكان يخرج من جامع عمرو ومعه الشـــــهود للرؤية الى الجيزة . وكان يتبعهم الاحبـــاس (الأوقاف) ويشرفون عليها منذ ١٨ هـ/٧٣٧ م .

العاصمـــة الثانيـــة

لما أصـــبحت مصر خاضعة للخلافة العباسية قام عساكرها بعد احراق وتخريب الفســـطاط بانشـــاء معســـكر لهم فى شمال شـــرق المدينة وأطلقوا عليه مدينة العســـكر عام ١٣١ هـ/٧٥١ م ، وظلت هذه المدينة مقرا للولاة العباســـيين لمدة ١١٨ سنة حتى تولى أحمد بن طولون وأسس مدينة القطائع عام ٢٥٧ هـ/٨٧٠ م .

وكانت الفســـطاط وحتى زمن الخليفة العباسى المنصـــور تتصـــل بالبحر الأحمر عن طريق خليج أمير المؤمنين وكانت السفن كما يقول المقريزى تســـير فيه حاملة التجارة الى الحجاز واليمن والهند . لكن لما ثار الشـــيعة فى الحجاز أيام محمد النفس الزكية أمر الخليفة بطمر الخليج حتى لا تحمل الميرة من مصـــر الى المدينة المنورة . وانقطع منذ هذا الوقت اتصـــال الفســـطاط بالبحر الأحمر . الا أن التجارة لم تنقطع فلقد كانت تســـير المراكب الى قوص بالوجه القبلى وتنقل القوافل بأحمـــال البضـــــائع عبر الصحراء بجنوب مصر الى ميناء عيذاب (رأس بيناس) على البحر الأحمر ومنه تحملها السفن للحجاز والهند وكانت البضائع تصله من الشـــرق الى قوص وبالنيل تصـــل الى الفســـطاط . وظل هذا الخط التجارى سائدا حتى افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ م .

وبعد انشاء العسكر كانت طبوغرافية الفسطاط كما وصفها المقريزى منطقتين . احدهما كانت تلتف كحدوة الحصان طرفها جبل يشكر شمالا (جامع ابن طولون) وجبل الرصد وكانت تضم هضبة المقطم وكان يطلق عليها عمل فوق . لأن هذه المنطقة كانت تلية مرتفعة بمنأى عن فيضان النيل بعيدة عن أبخرة المستنقعات التى كان يخلفها الفيضان بعده .

وكانت المنطقة الأولى تحتضن وتلف حول المنطقة الثانية المنخفضة نسبيا وكان يطلق عليها عمل تحت وكانت عرضة للفيضان والأبخرة والمستنقعات والدخان والأتربة وكانت شوارعها مليئة بتصاريف المجارى وأرضيتها حجرية تمنع تسرب المياه التى كانت تصرف فى النيل وتلوث مياهه للشرب .

لكن المدينة الجديدة قد اختارها قائد الحامية العباسية أبو صالح بن على مكان معسكره عندما كان يحاصر الفسطاط للاستيلاء عليها من الأمويين . وما كان عليه سكنى مدينة خربة قد أصبحت أطلالا بعد احراقها . فاتخذ أبو صالح هذه المعسكرات عاصمة الولاية وأقام بها مع جنوده . الا أن هذه الضاحية الجديدة قد اندمجت مع الزمن بالفسطاط واصبحت المدينتان على هيئة مثلث قاعدته من الجنوب الى الشمال بحذاء النيل من قصر الشمع الى جبل يشكر وعلى رأس كل زاوية من ثلاث زوايا المثلث كان يوجد باب . وهذه الأبواب الثلاثة هى باب الصفا بالشرق وباب مصر بالشمال وباب القنطرة بالجنوب حيث

كان بين الفســـطاط وجزيرة الروضـــة جســـر من المراكب يوصل عبر الجزيرة الى جســـر الجيزة والروضـــة .

وبعد انشـــاء مدينة العســـكر أقيم جـــامع بها ثم انتقلت الشـــرطة العليا من الفســـطاط اليها لتصبح شـــرطة الفسطاط تابعة لها . وأصـــبحت العسكر عاصمة اقطاعية مصر العباسية . وأيام حكم الوالى العباسى حاتم بن هرثمة بنى فوق جبل المقطم مكان قلعة صـــلاح الدين حاليا قبة الهواء وكان المصـــــريون يطلقون عليها قبة الدخان وكانت قصرا صيفيا الا أن جامع عمرو ظل به بيت المال والقضاء والتدريس .

والعســـكر رغم انها عاصـــمة مصـــر الا أنها لم تطغ على الفسطاط كمدينة تجارية . فالعســـكر كما يقول ســـتانلى لينبول فى (قصة القاهرة) كانت حى الموظفين لكنها لم تقلل من عظمة الفســـطاط وأهميتها كحاضـــرة مصـــر . ورغم ان هذه المدينة امتلأت بالشوارع والميادين وكانت مقر ٦٥ واليا عباسيا الا انها لم يبق منها حاليا أى أثر .

وكانت هذه المدينة عبارة عن حصـــن بلا اســـــوار لأن الفســـطاط لأكثر من قرن كانت تموج بالثورات والفتن ولا سيما أيام خـــلافة المأمون العباسى الذى أتاها عام ٢١٧ هـ/٨٣ م بنفســـه وهو أول خليفة يزور مصـــر . وكان ســـبب مجيئه على رأس جيش أن ثورة الفســـــطاط اندلعت وامتدت الدلتا وكان الأقباط قد أشـــعلوها . الا أن المأمون أخمدها الى حين .

وكان للمدينتين قرافة مصـــر وكانت جزءا من جبل المقطم او جبل مصـــر كما كان يقال . وقد ســمى بالمقطم نســبة الى المقطم بن مصر حفيد ســيدنا نوح وكان ينزل به . وكان عمرو بن العاص قد عرض عليه قيرس (المقوقس) شـــراءه لأنه أرض كان به غراس أهل الجنة . فأرســل ابن العاص للخليفة عمر يطلب منه ابتياعها بعشــرين ألف دينار وروى ما قاله قيرس ، فرد عليه الخليفة قائلا : لا أعرف غراس الجنة غير المؤمنين فاجعلها مقبرة لهم . ويقول ابن زولاق فى (محاسنه) بأنه دفن بهــا اثنان وسبعون أميرا أولهم عمرو بن العاص وآخرهم كافور .

(٥)

العاصمـــة الثالثـــة

يعتبر احمد بن طولون من أقدر من حكم مصـــر ولا سيما فى عصر الولاة وكان عمره ٣٣ عاما عنـد تولى الولاية وكان من الأتراك . وشـــعر المصـــريون خلال فترة حكمه بالعدل والأمن والرخاء .

فلأول مرة فى مصـــر نجد أن حاكما يضـــع ســـياسة اقتصـــادية وعمرانية وزراعية . ومما ســـاعده أن النيل كان يفيض فى عهده بانتظام . وكانت مصـــر طوال حكمه مســـتقلة استقلالا ذاتيا عن الخلافة ببغداد وكانت مدينته الجديدة عاصمة لها وزنها الســـياسى والعســـكرى فلقد استطاع كبح ثلاث ثورات قامت ضـــده بمصـــر وجعل دولته تمتد من النيل للفرات وكانت برقة بليبيا تتبعه . وهذه هى أول مرة فى تاريخ مصر الاسلامية تصـــبح حاكمة للشـــام وفلســـطين وشمال الفرات وبلغت حدود مصر الشمالية الشرقية تخوم جبال طورس على حدود الامبراطورية البيزنطية فحمى الخلافة العباســـية ببغداد من الخطر البيزنطى الذى كان يداهم الثغور والأربطة على الحدود وكانت الخـــلافة العباسية قد نخر فيها الفساد والفتن .

وكان ابن طولون قائدا موهوبا ومخططا ممتازا اســتطاع الصـمود أمام العباســيين وكبح جماحهم بل حمى الخليفة نفسه من معارضـيه ومنافسيه والمنشقين عليه . فابن طولون شخصيته قدرية ارسـلها الله من أجل رخاء مصـر . وها هو ابن وصيف شـاه يصـف عصر ابن طولون قائلا : أخذ فى أسباب العمارة قرى مصـر وعمارة جسـورها وقناطرها وحفر خلجانها وسـد ترعها .. فاسـتقامت أحوال الديار المصـرية فى أيامه بعدما قد تلاشى أمرها الى الخراب وانحط خراجها فى أيام من تقدمه من العمال (عمال الخراج) .

وانشأ ابن طولون جيشـا واسـطولا وكثر من ضم المماليك والعبيد والعرب له . وحاول الخليفة المعتضد العباسى القضـاء عليه لكنه فشـل . وطلب الخليفة منه تزويجه حفيدته قطر الندى ابنة خماوريه واصـدقها مائة الف دينار . فجهزها وأرسـلها فى موكب عرس ومعها جهازها صـنعه أمهر صـناع مصر ، وكان المعتضد متيما بها .

ووجد أحمد بن طولون أن مدينة العسـكر قد ضـاقت به وبجنوده ولا تليق أن تكون عاصـمة امارته الناهضـة . ففكر فى عام ٨٦٠ م فى انشـاء مدينة سماها القطائع أنشأ بها قصره ومنازل الطولونيين . كما أقام بها جامعه الشـهير والميدان . فلقد خطط المدينة الجديدة على هيئة سـامراء بالعراق . فجعلها على شـكل دائرى وملاصـقة لمدينة العسـكر وكانت عكس الفسـطاط والعسـكر . لأنهما كانتا معا على شـكل مثلث . وجعل المدينة فى شـمال شـرق العسكر بين جبل يشكر الذى بنى فوقه جامعه وبين سـفح المقطم اى من الرميلة حاليا الى القلعة وحتى جامع زين العابدين وكانت القطائع مسـاحتها ميل

مربع . وبنى قصـــره مكان قبة الهواء (القلعة حاليا) وجعـــل أســـواق المدينة فى صـــفوف وكل صـــف كان متخصصا فى بيع بعض الأصـــناف . أما الميدان فكان للتدريب على الرماية والخيل والســـباق وكان به اســـطبلات الخيول وكان يقع فى شـــرق المدينة وتقام به العروض العســـكرية التى كان يحضرها الاهالى . وكان يصـــل القصـــر بالجامع طـــريق يتوجه منه ابن طولون لصـــلاة الجمعة بجـــامعه . وقد بنى القواد والضـــباط حوله القصـــور . وكان للميدان عدة أبواب . وكان ابن طولون أثناء العرض يجلس على منصـــة المقصورة فوق مكان مرتفع يطل منها على الميدان .

وقد بنى ابن طولون بيمارســـتان فى القطائع عام ٨٧٤ م . وكان خاصـــا لعلاج الشـــعب وحرم دخوله على جنوده وكان موضـــــعه بين جامع ابن طولون وقنطرة الخليج وأوقف عليه الأوقاف وكان به حمامان للشـــعب أحدهما للرجال والثانى للنساء وكان ايرادهما للانفاق على البيمارســـتان . وكان يقدم به الملابس والطعام للمرضى والعلاج بالمجان وكان يزوره ابن طولون كل يوم جمعة بعد الصـــلاة .

وقد بنى ابن طولون مســـجدا ثانيا بالقـــرافة وآخـــر فى الروضـــة وأقام مسجد التنور فوق المقطم وبنى ديوان الخراج بالعسكر .

وكان خمارويه قد خلف أباه وكان كما يقول ابن وصـــيف شـــاه مولعا بالعمارة وغرس الأشـــجار . فلقد أقام حديقة قرب جامع أبيه ونقل اليها الأشـــجار من ســـائر البلاد الهندية والشامية والحجازية فكان بها ســـائر الفواكه والرياحين (الورود المعطرة) حتى الكادى والقرنفل والزعفران وجوز الهند . وزرع الرياحين فى اشكال كلمات مثل (حسبنا الله ونعم الوكيل) .

وكان البســـتانيون يهذبونها بمقصـــات من الذهب والفضة يقلمون بها هذه الشـــجيرات والبس توائم (جذوع) الأشـــجار بالنحاس الأصـــفر المطلى بالذهب . وكان يسحق الكافور والمسك وينثره فوق الرياحين .

ويقول ابن وصـــيف شـــاه فى وصفه : وصنع فى ذلك البســـتان بحيرة كبيرة وملأها بالزئبق وكان يضـــع على ذلك الزئبق فراشـــا (مفرش) من جلد خباة أنعم من الحرير وكان له حركات (فتحات) تمتلىء بالريح ثم يســـد فاه بحبل ويطرح ذلك الفراش (المرتبة الهوائية) على ذلك الزئبق وينام عليه . وطبعا لا يغوص لأن الزئبق كثافته عالية جدا بالنسبة للماء وهو أثقل العناصـــر الكيماوية .

وجعل خمارويه بقصـــر الامارة قاعة الذهب وفوق جدرانه المبطنة بالخشـــب حفر عليه الصـــور ولا سيما صـــور محظياته وقد وضـــع فوق رؤوســـهم اكاليل من الذهب الخالص المرصـــع بالجواهر وفى اذانهن أجراس ثقال الوزن ومحكمة الصـــنع كما يقول المقريزى .

ومدينة القطائع تعرضـــت بعد ســـقوط الدولة الطولونية للتدمير والنهب والســـلب بعدما دخلتها القوات العباســـية عام ٢٩٢ هـ/٩٣٤ م بعد أكثر من ســـبعين سنة على بنائها . ولم يبق ســـوى جامع ابن طولون بعدها أصبحت مصـــر ولاية عباسية وأصبحت العســـكر ثانية مقرها . ويعتبر الحكم الطولونى أول حكم متوارث فى مصـــر منذ عهد البطالمة .

لكن المصـــريين حزنوا على مصـــير الطولونيين وشـــهدت الفســـطاط ثورة دامية قام بها الشـــعب بقيادة الشـــاب الخلنجى وكانت تطالب بعودة الطولونيين . وطرد الثوار الجنود العباسيين

من الفسطاط والاسكندرية وظلت هذه الثورة مندلعة لمدة عام حتى أغتيل الخلنجى قائدها . واستغل الفاطميون هذه الثورة فارسلوا قوات لهم من المغرب وحاربت القوات العباسية ووصلت الجيزة غرب الفسطاط . الا انهم عادوا للمغرب وكان الولاة العباسيون طوال ٣٠ سنة معزولين فى قصر الولاية بالعسكر . فالبلاد فى فوضى الى أن تولى الاخشيد ودخل بقواته الفسطاط عام ٩٣٥ هـ من النيل . وجعل مقره قصر المختار الذى بناه بالروضة الا أن الدولة الاخشيدية لم تعمر طويلا وقد حكمها كافور الاخشيدى مدة ٢٢ سنة وكان عبدا خصيا للاخشيد . وكانت الفسطاط قد ازدهرت فى عهده .

ويعتبر جامع ابن طولون طرازا فريدا فى عمارته ولا سيما مئذنته الملوية التى كانت على طراز مآذن جوامع مدينة سامراء بالعراق . وقد بناه عام ٢٦٣ هـ/٨٧٦ م . فوق قمة جبل يشكر الصخرية وكانت مسطحة . وقد استخدم الآجر (نوع من الفخار) فى بناء العقود والدعائم (الأعمدة) لأنه أراد أن يكون بمنأى عن الحريق . فبنى من الآجر والرماد والجير . ولهذا قاوم النيران عند احراق القطائع فى تدمير القوات لعباسية لها بعد ٥٨ سنة من بنائه فلأول مرة تبنى الدعائم بدلا من الأعمدة الرخامية فى مسجد ابن طولون . ولو كانت من الرخام كما فى جامع عمر لاحترق من الحريق . واستخدمت العقود المدببة واستعمل الجص فى الزخارف التى مازالت . وكان بالجامع الرواق الجنوبى الشرقى ليكون رواق القبلة وزخارف الأروقة وبطون العقود وحول النوافذ كلها جصية . وبالجامع صحن فسيح جدا ومربع حوله عقود وأعمدة وفى قبالة رواق القبلة يوجد الرواق الشمالى الغربى وبه نوافذ معقودة بعقود مدببة وكانت أسقف

الأروقة من الخشب . وبرواق القبلة يوجد المحراب الذى شيد السلطان لاجين (لاشين) المملوكى فوقه قبة اقامها عام ١٢٩٦ م .

وكان بالجامع فوارة رخامية مسقوفة للوضوء الا أن قبة فوق المضياة قد بنيت وسط صحن الجامع وهو يشبه القلعة من الخارج .

ويعتبر هذا الجامع نقطة تحول فى العمارة الاسلامية بطرازه وطراز مئذنته والمواد التى بنى بها الجامع وهى الآجر والرماد والجير . وجدران الجامع الداخلية كسيت بالفسيفساء وأرضيته من البلاط المرمر فوقها الحصر والسجاجيد وأعلى البوائك كتب القرآن بالكامل بحروف الذهب فوق الأفريز . فوقه أفريز ثان عليه زخارف مفرغة . والجامع حاليا يعتبر من الجوامع الأثرية بالقاهرة ومازال على حالته بعد التجديدات والتحسينات التى اجريت له .

لكن القطائع والعسكر قد لحق بهما الخراب ولا سيما فى القرن ١١ . وكان قد أقيم سور على الطريق بين القاهرة من عند باب زويلة الى الفسطاط ليحجب خلفه خرائب هاتين المدينتين وحتى لا يراها الخليفة عندما يتوجه بموكبه لصلاة الجمعة اليتيمة فى جامع الفسطاط .

(٦)

العاصمـــة الرابعـــة

قامت الفســطاط لتكون عاصــمة ولاية وقامت العســكر لتكون عاصــمة اقطاعية مصــر وقامت القطائع لتكون عاصمة للدولة الطولونية . لكن قاهرة المعز قامت لتكون عاصــمة خــلافة مســتقلة . وهذه العواصــم الأربعة قامت غرب المقطم الذى كان ســدا منيعا أمامها . وفى الغرب النيل . وبين هذين اللسانين أحدهما جبل خلفه صــحراء والثانى نهر خلفه المزارع والخضــرة فالشــرق صفرة باهتة والغرب خضرة متدرجة الالوان والظلال . واذا كان الفيضــان يغمر الشــريط الغربى من القاهرة الكبرى فان المقطم كان يغمر القاهرة بالســيول شــتاء والأتربة . كما أن الصــحراء الغربية فيما وراء النهر كانت تغمرها بالرمال فى الخماســين .

فالفســطاط والعســكر بنيتا حول جامع لكل منهما . لكن القطائع بنيت حول ميدان الرماية وحديقة . أما القاهرة فبنيت وبقلبها قصــر الخــلافة . فالجامع الطولونى كان جنوب غرب القطائع وجامع الأزهر كان جنوب شــرق القاهرة المعزية . وكان إبان عصــر الفتح ، الجنــود لا تســكن المدن لكن تســكن

معســكرات ، هى مدن عسكرية . وكانت البصــرة والكوفة فى الأصل مدينتين عســكريتين . وكانت المدينة العســكرية عبارة عن جامع بجانبه امارة الجند وحولها مضــاربهم . وهكذا كانت الفسطاط والعســكر . لكن القطائع كانت دار الامارة فى الشرق فوق تل من هضــبة المقطم والجامع فى الغرب فوق جبل يشكر وبينهما المدينة الطولونية . والقاهرة كان القصــــر فى قلبها وجامعها الأزهر على طرفها الجنوبى الشــرقى . كما أن قلعــة صــلاح الدين تعتبر مدينة حصينة عســكرية . أقيمت فوق جبل وهى تعتبر مدينة اســلامية لأن بها الجامع ودار الامارة والجند الا أنها مســورة .

والفســطاط والعســكر والقطائع كانت مدنا بلا اســوار الا أن القاهرة منذ أول ميلادها شــرع ببناء السور لها . فأصبحت مدينة قصــرية . أقيمت بعد انشاء الفسطاط بثلاثة قرون .

وكان جوهر الصــقلى بانى القاهرة المعزية وقائد الحملة الفاطمية على مصــر قد تقيد بما اختطه المعز لهذه المدينة قبــل أن يغادر القيروان الى مصــر . وقد اختير موضــعها فوق سهل رملى شــبه منحدر من الشــرق للغرب وأوصــاه أن يســمى هذه المدينة الجديدة المنصورية .

ولما نزل جوهر بقواته شــمال القطــائع الثلاثاء ١٧ شعبان ٣٥٨ هـ/٧ يوليو ٩٦٩ م قام فى نفس الليلة بتخطيط المدينة وعمل على وضــع حجر اساس قاعدة ملك المعز . وشــرع فى وضع الســور وكلف المنجمين المغاربة الذين أحضرهــم معــه لتحديد ساعة سعد عند البدء فى البناء ويقول ابن ظهيرة فى (محاسنه) : لما قصــد فى بناء الســور جمــع المنجمين وأمرهم أن يختاروا

طالعا لحفر أســـاس وطالعا لرمى حجارته (طوبه) فجعلوا قوائم خشـب بين كل قائمين حبل فيه اجراس واعلموا البنائين أن ســاعة تحريك الأجراس ترمون بأيديكم من الطين والحجارة . فوقف المنجمون لتحرير هذه الســاعة . فاتفق أن وقع غراب على خشـبة من تلك الأخشــاب فتحركت الأجراس . فظن الموكلون بالبناء أن المنجمين قد حـــركوها . فألقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة فى الأســاس . فصـاح المنجمون : لا . لا القاهر فى الطالع . فمضى ذلك وخاب ما قصــــدوه . وكان الغـرض أن يختاروا طالعا لا يخرج البلد عن نســلهم وعقبهم . فوقع أن المريخ كان فى الطالع وهو يسمى عند المنجمين القاهر .

ولما أتى المعز مصـر عام ٩٧٢ م وســمع القصــة فغير اســم المنصـورية الى القاهرة لكنه تطير عند سماعها .

ويعتبر على مبارك فى خططه التوفيقية من أكثر الذين حققوا تخطيط مدينة القاهرة المعزية . حقيقة اســتعان بما كتبه المؤرخون الأوائل ومن بينهم المقريزى الا انه تميز بأنه حقق ودقق أســماء الأماكن وأرجع الأســـماء الحديثة لشــــوارعها ومبانيها الى أصولها وأسمائها القديمة فاستطاع تكوين صورة بينة وكاملة عن القاهرة أيام الفاطميين منذ أكثر من ألف عام .

لقد بين ان مســاحة المدينــة كانت ٣١٥ فدان . وكان ســورها من الطوب اللبن ومربع الشــكل وكانت زواياه باتجاه الجهات الأصــلية الأربعة . وكان هذا الســور يفصــل القاهرة الجديدة عن الفسطاط والقطائع . وكان فى شــــماله خندقان متتاليان عرض كل منهما ١٠ ذراع وعمقه ١٠ ذراع وكان خليج أمير المؤمنين غرب الســور ويبعد عنه ٣٠ مترا .

وبالمدينة بنى قصران هما القصر الشرقى المسمى بالكبير وكان مقر الخلافة والحكومة والدواوين ومساحته كانت خمس مساحة القاهرة أى ٦٣ فدان . وكان واجهته من الشمال للجنوب طولها ٧٥٠ مترا وعرضها ٣٥٠ مترا . ومكان هذا القصر حاليا جامع الحسين وبيت القاضى وخان الخليلى ويمتد شمالا حتى الجامع الأقمر بأول شارع أمير الجيوش (مرجوش) ويمتد جنوبا حتى يصل الى شارع الصنادقية مكان شارع الغورية .

وكان للقصر عدة أبواب أشهرها باب الذهب وكان فى غربى القصر باتجاه مستشفى قلاوون حاليا وكان يطل على ساحة بين القصرين . وشمال القصر كان يوجد باب الريح وباب العيد ويطلان على فضاء متسع وكان يطلق عليه رحبة العيد ومازال اسمها حتى الآن بالجمالية وتمتد من شارع الجمالية حتى الجامع الأقمر . وكان الخلفاء يخرجون من باب العيد الى باب القصر حيث كان يصلى العيد وكان الخلفاء الفاطميون يؤدون فيها صلاة العيد . وكان فى الجهة الشرقية للقصر يوجد باب قصر الشوك حبث كان يوجد هذا القصر وهذا الباب مجاور لمسجد الحسين فى حارة القزازين المتفرعة من شارع أم الغلام .

وجنوب القصر كان يوجد باب الديلم (من الترك) ومكانه حاليا الباب الأخضر بمسجد الحسين والباب الثانى على يسار الباب الأول وكان يسمى باب الزعفران وكان يؤدى الى مقابر الفاطميين ومكانه حاليا خان الخليلى . وفى جنوب غربى القصر كان يوجد باب الزفر حيث كان يدخل منه الطعام به من المطبخ الذى كان مكانه حاليا الصاغة بين خان الخليلى والسكة الجديدة . وكان يطلق على هذا الباب أيضا باب الزهومة .

ويوجد فى القصـــر الشـــرقى أيضا ايوان قاعة العرش وكان بها ســـــرير الملك وهو من الذهب الخالص وعليه مرتبة الخليفة الموشـــاة بالذهب . وكانت جدران القاعة مغطاة بستر حريرية موشـــاة بالذهب والأرض فرشـــت بأبسطة من الحرير . وكان يتفرع من قاعة العرش دهليز يؤدى الى أبواب القصـــر . وكان الخليفة يركب فرســـه المطهم من على باب الايوان ويسير بالدهليز فوق أبســـطة الحرير حتى يخرج من الباب .

وكان دواوين الخلافة ملحقة بقاعة العرش وكانت توجد مكتبة كبرى وضـــخمة وخزانة الكســـوة وخزانة الشـــراب (صيدلية) ومخازن الأســـلحة والأطعمة وتجهيزات الخيول والخيام . وكان به دواوين لكبار الحاشـــية والقواد كل حســـب عمله . وأبرز هذه الدواوين كان ديوان الانشـــاء . وجنوب هذا القصـــر بنى الجامع الأزهر وكان يفصله عنه ميدان .

والقصـــر الثانى كان القصـــر الغربى وهو أصـــغر حجما وقد شـــيد بجوار جنينة كافور وكانت مســـــاحتها ٣٥ فـــدان ومســـاحة القصـــر ٣٠ فدان وكانت ملاصقة السور .

وكان عرض القصـــر ٢٥٧ مترا وطوله حتى الخليج ٤٦٥ مترا . وعلى شـــماله كان يوجد ميدان وكان باب التبانين يفتح عليه ومكانه حاليا شـــارع الخرنفش وكان الميدان أصـــلا اسمه ميدان الخرنفش وســـبب هذه التســـمية أنه كان مبلطا بالحجر المدكوك وهو حجر محترق كان يطلق عليه الخرنفش أو الخرشتف وكان بســـتان كافور يقع غرب القصـــر ومكانه جامع الشعرانى والبســـكة الجديده وكان يمتد شـــرقا للنحاســـين . ويطل القصر على الخليج وجنينة كافور غربا وكان يطل شـــرقا على ســـاحة بين القصـــرين . وكان ملحقا بالقصـــر الحمام (حاليا مكانه حمام

النحاســـين) بين مستشفى قلاوون والصـــاغة . وكان الخليفة يعيش فى القصـــر بين الحريم وكان مقســـما لعـــدة أجنحة . وكان اســـطبل الخيـــول جنوب جنينة كافور وكان يطلق عليه اســـطبل الجميزة . وأيام الخليفة العزيز بالله شـــيد قصـــر الذهب والديوان الكبير ومنظرة اللؤلؤة وكان قد أقيم عشـــرة قصور أطلق عليها جميعا القصور الزاهرة .

وكان قصـــر الذهب به قاعتين . قاعة الذهب وكانت قاعة العرش أيام العزيز بالله وقاعة الفضـــة للاســـتقبالات . وكانت قاعة العرش قد كســـيت جدرانها بالذهب والعرش كان من الذهب الخالص المرصـــع بالجواهر لأن العزيز كان مولعا بها . وكان العرش فوق منصـــة من الذهب الخالص حولها أشـــجار النخيل من الذهب ومثقلة بالفواكه والأزهار من الأحجار الكريمة وفوقها تماثيل طيور من الذهب ومزخرفة بالمينا .

وكان خليج أمير المؤمنين غرب الســـور الغربى للمدينة وكان يعتبر خندقا ثالثا لها . وكان بالســـور الغربى باب القنطرة الذى يؤدى الى قنطرة الخليج . ومن هذا الباب كان يخرج جوهر القائد وجنوده لمحاربة القرامطة الذين كانوا يغيرون على معسكراته أثناء بناء المدينة .

والقاهرة المعزية كان طولها من الشـــرق للغرب خلف السور ١١٠٠ متر ومن الشـــمال للجنوب ١٢٠٠ متر . وكانت أبواب الســـور هما باب النصـــر وباب الفتوح وفى الجانب الجنوبى كان باب زويلة وبالشـــرق كان باب القراطين (المحروقين) وباب البرقية (الغريب) بالدراســـة حاليا . وكان فى الســـور الغربى باب ســـعادة مكان مديرية الأمن الآن . وكان باب زويلة الأيسر مكروها لأنه كان ينفذ عنده الاعدام .

وكان حراســـة هذه القصـــور نحدها مائة من الفرســـان على باب الذهب وبعد صـــلاة العشـــاء بالقصـــر الشرقى كان ينفخ فى البوق وتقرع الطبول والموســـيقى لمدة ســـاعة ، ثم يغلق الباب . ويعين حراس طوال الليل وتمد سلسلة لغلق ساحة بين القصـــرين ويمنع اى شخص من المرور . وفى الصـــباح ينفخ فى البوق اعلانا عن يوم جديد . وكان يعقد مجلس الخليفة بقاعة العرش للأمراء والعلماء وكبار رجال الحاشـــية مرتين اسبوعيا ثم انتقلت هذه الاجتماعات الى قصـــر الذهب فى عصـــر الحاكم بأمر الله .

وأيام المستنصر اقام وزيره بدر الدين الجمالى ســـورا ثانيا حول القاهرة وأصبحت مســـاحتها ٤٠٠ فدان وأقام شـــارعا من باب الفتوح الى الجنوب واقام أبواب النصـــر والفتوح فى الشمال وباب زويلة (بوابة المتولى) بالجنوب . وهذه الأبواب غير أبواب القاهرة المعزية وباب الشـــعرية بالغرب والذى ســـمى نســـبة الى قبائل بنى الشـــــعرية وباب زويلة نســـبة الى قبائل زويلة وهذه القبائل من البربر بشمال افريقيا .

وكانت القاهرة المعزية مكونة من عدة حارات أطلق عليها أســـماء القبـــائل والقواد الروم الذين جاءوا مع المعز وفى جيش جوهر . فأطلق على الحارات أســـماء القواد سعادة بن حيان الصـــقلى حيث أطلق اســـمه على حى سعادة وكان بجواره باب سعادة وريدان الصـــقلى أطلق اســـمه على حى الريدانية وعطوف على حارة العطوف عند باب النصـــر وجودر الصـــقلى على حارة الجودرية قرب الأزهر والحسن يانس على حارة اليانس .

أما حارات القبائل التى كان يســـكنها جنود كل قبيلة فمنها حارة زويلة (حارة اليهود حاليا) وحارة الروم الجنوبية بالغورية

وكان يســكنها الصــقالبة وحارة الروم الشــمالية وكان يطلق عليها حارة الروم الجوانية)(حاليا بشارع الجمالية) وحارة البرقية وكان يســكنها جنود برقة (بشــرق الحسين) وحارة كتامة (حاليا حارة الدوداري) وحارة الديلم (بجوار مســجد الفكهاني) وكان الوزير يوســف بن كليس يســكن حارة الوزير .

أما حي الباطنية بالأزهر فقد كان يطلق عليه الباطلية وأصل التســمية أن جنودا كان يقطنون الحارة توجهوا الى بيت المال ايام المعز فقيل لهم المال نفد ولم يأخذوا أعطياتهم . فقالوا : رحنا فى الباطل لكن حى الباطنية يقال أن اســمه هذا لم يتغير لأنه كان مســكنا لطائفة الباطنية وهى من طوائف الاسماعيلية الفاطمية التى تؤمن بأن للقرآن معانى ظاهرة وباطنة والمعانى الباطنية لا يعرفها سوى الامام فقط للشيعة . وكانوا يسكنون حول الجامع الأزهر لأنه موئل عقيدتهم وقتها .

وكان بالقاهرة المعزية شــارع رئيسى يطلق عليه « قصبة القاهرة » وهو يمتد من باب الفتوح الى باب زويلة (بوابة المتولى) وكان هذا الشــارع لا يســير فيه راكبا ســوى الخليفة فقط على فرســه ، وما عداه كان يســير راجلا . ويســمى هذا الشــارع حاليا شــارع المعز ، وكان رســل ملوك الروم اذا بلغوا باب الفتوح نزلوا عن خيولهم وســاروا بالشــارع على أقدامهم . وكانت أبواب القاهرة لا تســمح بدخول أى شخص غريب الا وكان مأذونا له مســبقا بالدخول لهذا أطلق على المدينة القاهرة المحروسة . وكان أى شــخص مهما كان يفتش جيدا على الأبواب . وكان باب الفتوح باب المظــالم فأى شــخص كان له شكوى يقف عند الباب ويستغيث بعفو أمير المؤمنين . فيدخل الى القصر الكبير ويستغيث حتى ولو كان مذنبا فيغيثه المعز .

وشارع أمير الجيوش (حاليا يطلق عليه مرجوش) كان يضم الجنود المرتاحية والفرحية . ودرب شارع أم الغلام بالحسين كان يوجد حارة الصالحية وكان بها حراس الوزير الفاطمى صالح زريق . ودرب القزازين كان يسمى حارة ملخوية نسبة الى خادم الحاكم بأمر الله .

وكان مسجد الحسين فى الأصل قصر الخلافة الفاطمية وقد دفن فيه رأسه بعد احضارها من عسقلان بفلسطين عام ٥٤٩ هـ/١١٥٤ م أيام الخليفة الفاطمى الفائز .

وكان الجنود المغاربة والسودانيين يسكنون خارج الأسوار بالمدينة فى شمالها وجنوبها بعيدا عن مناطق القصور . لهذا كانت حارة الحسينية يسكنها العبيد الحسينية وتقع شمال باب الفتوح وعرفت فيما بعد بخط الحسينية أو حى الحسينية .

ومن أهم الانشاءات التى اقيمت أيام الفاطميين دار الحكمة (دار العلم) حيث أقامها الحاكم بأمر الله عام ١٠٠٥ م وكانت شرق القصر الصغير وتطل على ميدان القاهرة (ساحة بين القصرين) ولما تولى الأيوبيون هدمت الدار بالكامل وحل محلها درب الخضيرى والذى هدمه سليمان أغا عام ١٠٤٠ م وبنى مكانه قصره وسبيله ناحية مرجوش بحارة برجوان .

وكانت دار الحكمة قد حمل اليها الحاكم الكتب من القصور والحق بها العلماء والأدباء والشعراء . وكانت مؤثثة أحسن تأثيث وبها قسم للنسخ ويقوم بخدمتها عمال مدربون . وكان ينفق على الباحثين ومن بينهم ابن الهيثم وابن يونس المصرى . وكانت تنافس بيت الحكمة ببغداد . وفيها وضع ابن الهيثم نظرياته الشهيرة فى الضوء والبصريات وقام ابن يونس

من خلال مرصده بحلوان بوضع الجداول الحاكمية وكان الحاكم قد أقام له مرصدا فوق جبل المقطم . وكان له أبحاثه الرائدة فى الحساب والمثلثات .

وتعرضت دار الحكمة للنهب عام ١٠٦٩ م حيث انتزع الغوغاء أغلفة الكتب الجلدية وصنعوا منها نعالا واستخدموا الأوراق وقودا .

واشتهر العصر الفاطمى باقامة المناظر وكل منظرة كانت قصرا جميلا يرى الخليفة منه ما حوله .وعند الجامع الأزهر كان يوجد منظرة يطل منها المعز عليه فى الاحتفال بليالى الوقود الأربعة فى اول ومنتصف رجب وأول ومنتصف شعبان وكانت تضاء بالتنانير (الثريات) والقناديل والشموع .

وكان على الخليج عدة مناظر تطل عليه وعلى البساتين غربه . فمكان جامع الشعرانى كانت منظرة اللؤلؤة ومكان جامع المغربى فى بين السورين كانت منظرة الغزالة وعند فم الخليج كانت منظرة السكرة وكان الخليفة الفاطمى يشهد منها احتفال كسر السد وانتتاح الخليج أيام الفيضان وكان الخليفة بعد كسر السد يتجه الى منظرة الدكة عند قنطرة الدكة حيث بسقى فرسه من الماء هناك .

وخارج باب الفتوح كان يوجد منظرة العرض العسكرى وكان يجلس بها الخليفة حيث يطل على الجنود وهم متوجهون للقتال من طاقة ويامرهم بالسفر مع الدعاء لهم بالنصر . وبنى الحاكم بأمر الله منظرة المقسى على النيل قرب ميناء المقس (محطة مصر الآن) وبنى بجوارها جامعه (مكان جامع الفتح) .

وكان الوزير الأفضـــل الجمالى قد أقام مرصـــدا فلكيا فوق جبل الجيوشى قرب الامام الشـــافعى وكان أبوه بدر أمير الجيوش قد بنى عام ١٠٨٥ م جامع الجيوشى . وبجوار المرصـــد أقيم مسجد الرصد عام ٤٧٨ هـ/١٠٨٥ م وأيام المستنصر الفاطمى .

كان الفاطميون منعزلين داخل مدينتهم وكانوا فى دواوينهم يعتمدون على النصارى واليهود وكان الخليفة الفاطمى يتوارى خلف وزيره .

وشـــهدت شـــوارع القاهرة أيام الفاطميين مناحة كربلاء فى يوم عاشـــوراء وهى ذكرى مقتل الحسين حيث كان اتباعهم يســـيرون فى الشـــوارع ويضـــربون أنوفهم بالسيوف ويلطمون الخدود وكان هذا العمل مســـتهجنا من المصـــريين . وقد جاء فريق من الدعاة الذين كانوا يتدربون ويدرسون بالجامع الأزهر . فلقد كان المصـــريون كارهين هؤلاء الفواطم لمذهبهم ولا ســـيما عندما كان يســـب الصـــحابة من فوق المنابر ولا سيما أبا بكر وعمر وعثمان لأنهم فى نظرهم قد سلبوا الخـــلافة من على بن أبى طالب وكان يعقوب بن كلس وزير العزيز يدرس هذا المذهب وكان يهودى الأصـــل وجعل كل المســـاجد فى مصـــر يلقى بها الفقه الشيعى الاســـماعيلى الا أنه كان منبوذا من المصريين أهل السنة ولا سيما بعد ما غير الفاطميون صيغة الآذان .

وشـــهدت القاهرة المعزية الحاكم بأمر الله الخليفة وكان يعانى من الانفصـــامية فى شـــخصيته فيروى شمس الدين الذهبى انه مر يوما بحمام الذهب بالفســـطاط فســـمع ضجيج النســـوة وهن فى الحمام فأمر بأن يســـد عليهن باب الحمام بالحجر الفصى حتى مات الجميع ومنع الناس من أكل الزبيب والعســـل الأسود ومنع زراعة الملوخية والقرع والترمس وأكل الســـمك الذى لا قشر

له كالقراميط وفرض على الناس اغلاق حوانيتهم نهارا وفتحهـــا ليـــلا .

وكتب الســباب للصــحابة على أبواب المســاجد وأبطل صـــلاة التراويح برمضـــان وادعى الربوبية . فعند ما كان يمر بالأســـــواق يقف الناس ويهتفون : يا واحـــد يا أحد يا محيى يا مميت .

وبعد مرور ١٢٠ سنة على انشـــاء القاهرة أقام بدر الجمالى الســـور الثانى للمدينة وأقام به أبواب جديدة بناها بالحجارة وهى باب النصر والفتوح وزويلة (بوابة المتولى) الا أن بقية الســـور كان من الطوب اللبن وتعتبر هذه الأبواب الثلاثة التى مازالت حتى الآن ســـمة للعمارة العســـــكرية لأنها توحى بأنها قـــلاع وليست ابوابا .

وكان تولية بدر الدين الجمالى للوزارة أيام المستنصر بالله الفاطمى . وكان خليفة مســـتهتر وخليفة حكم مصـــر ٦٠ سنة ، فلما ثار ضـــده جنوده وعاشـــوا بالقاهرة افســـادا ونهبا للقصور الفاطمية والمكتبة وبيت الحكمة . فاســـتدعى المستنصر الجمالى صـــاحب دمشـــق وعينه وزيره . ولما قدم للقاهرة دعا القواد الترك لمأدبة بقصـــر الخليفة وجعل جنوده يقطعون رؤوســـهم أثناء تناولهم الطعام والقى بها فى بئر القصـــر . ويعتبر الجمالى من أكفأ وزراء الخلافة الفاطمية رغم أنه كان سنى المذهب عكس الدولة الفاطمية فقد كانت توجهاتها شيعية المذهب .

وختم الفاطميون عصـــرهم بمجىء الصليبيين الى المشـــرق العربى واســـتيلائهم على القدس عام ١٠٩٩ أيام المســـتعلى وكانت تابعة للخلافة الفاطمية ، وأيام الآمر الفاطمى واصـــل

الصليبيون استيلاءهم على عكـا وطرابلس ووصلوا الى العريش وكان الآمر لا يفيق من الخمر وهذا ما جعله يكفـر عن سيئاتـه ببناء الجامع الأقمر عند سـوق مرجوش الا أنه قتل وهو سكران .

وآخر خلفاء الدولة الفاطمية هو العاضـد وكان شخصية ضـعيفة ولما وصـل الصـليبيون للقاهرة أحرق الفسـطاط وأرسـل شـعور نسـائه الى نور الدين بن زنكى بدمشـق يسـتصرخه فأرسـل له جيشـا بقيادة أسد الدين بن شيركوه وكان معه ابن أخيه صـلاح الدين الذى خلف عمه فى الوزارة وأرسـل له صـاحب دمشق بأن يقطع الخطبة عن الفاطميين ويعين عوده مصر للخلافـة العباسية وبهـذا أسـدل الستار على الخلافة الفاطمية وهرطقتها الشيعية .

(٧)

قاهـــرة الأيـوبيين

حقيقة تقال أن قاهرة المعـز ولدت كعاصـــــمة لها ثقلها السـياسى لأنها كانت عاصـــمة خلافة . وأيام الأيوبيين والمماليك كانت عاصـــمة سـلطنة حكمت مصر والشام وفلسطين والحجاز . وكانت حدودها الشـــرقية تصـــل الى شـــمال الفرات بالعراق وحدود الامبراطورية البيزنطية . وهذه الحدود الســياسية لمصر هى تركة الطولونيين . وفى عصـــر الســـلطنة شهدت القاهرة سلاطين عظاما وسـلاطين ضــعافا . الا انها ظلت أكبر عواصم العالم القديم .

ولما تولى صـــلاح الدين الأيوبى الســـلطنة بالقاهرة أمر ببناء ســـور ثالث حول العاصـــمة . ويقول ابن الأثير فى تاريخه : لما كانت سنة (٥٧٢ هـ/١١٧٦ م) أمر الملك الناصـــر صلاح الدين ابن أيوب ببناء ســـور القاهرة بالحجر الفص المنحوت وكان القائم على بنائه الأمـــير بهاء الدين قراقوش الخصى الحبشى فأبطل الســـور القديم الذى كان قد بناه الأمير جوهر فى أيام المعـــز الفاطمى .

وقال ابن الأثير : ان دور (محيط) الســـور الذى بناه صلاح الدين يبلغ ٢٩ الف ذراع (طولا) وجعـــل عليه الأبواب المصفحة بالحديد .

وكان بالسور الجديد ١٥ بابا غير الأبواب الصـــغيرة . وكان باب زويلة يطلق عليه باب الفاضل الذى قد بناه .

وكان الأمير بهاء الدين قراقوش المنوط به اقامة ســـور القاهرة والقلعة من أكفأ قواد صـــلاح الدين العظـــام . وكان مهندســـا بارعا الا أن ســـيرته فى الأدب الشـــعبى تشـــوه صـــورته حتى اصـــبح شخصية اســـطورية هزلية وهذه الملامح الشخصية الزائفة عن قراقوش قد لفقها الأديب ابن مماتى فى كتابه (الفاشـــوش فى حكم قراقوش) . وكان هذا الكتاب موجه لصـــلاح الدين لاتخلص من قراقوش وزيره المخلص الكفء فقال فى مقدمته : اننى لما رأيت عقل قراقوش مخرمة فاشـــوش قد أتلف الأمة .. لا يقتدى بعالم ولا يعرف المظلوم من الظالم .. ولا يهتدى لمن صـــدق . ويشـــتط اشـــتياط الشيطان ويحكم حكما ما أنزل الله به من سلطان .

لكن هذا اللغط الأدبى لم يؤثر فى نظرة الســـلطان صـــلاح الدين لموضـــع ثقته واقـــرب الناس اليه . وكان ما أخـــذ على قراقوش قصة المكتبة الفاطمية التى كانت بقصـــر الخلافة . فلقد رأى بايعاز من البعض أن هذه المكتبة قد عاش فيها العثة واشير عليه بتهوية كتبها فوق ارضـــية المكتبة . لكن هذا القول كان للايقاع بقراقوش وخلط الكتب المفهرســـة بعناية . وقام دلالو الكتب بخلط الكتب فيما بينها مما يجعلهم يشترونها بأبخس الأثمان . وكانوا يعـــرفون كيف يجمعون مجلدات كل مجموعة . الا أنهم أوعزوا لقراقوش أن أجزاء من هذه المجموعات مفقودة لهذا الغرض

الا انهم كانوا على بينة أن المجموعات كاملة ويمكنهم تجميعها بعد شـــرائها . وأوحوا الى قراقوش أن هذه الكتب معظمها كتب الشـــيعة وعقائد الاســـماعيلية الفاطمية الهدامة . وكانت سياسة صـــلاح الدين القضـــاء على البدع والهرطقة الفاطمية التى سادت العصـــر الفاطمى . فاستأذن قراقوش السـلطان لبيعها فاشتراها تجار الكتب . وكانت هذه المكتبة من أكبر المكتبات بالعـــالم وكانت تحتل أربعين حجرة بالقصـــر الكبير وبها مليون وســـتمائة الف مجلد تضم ١٠٠ الف موضـــوع فى شـــتى العلوم العربية . وكان بها ٢٤٠٠ نســـخة ملونة القرآن . وكان القاضى الفاضـــل قد اشـــترى مائة الف مجلد من هذه المكتبة وأنشأ بها مكتبة مدرسته الفاضلية .

وكانت هذه المكتبة الكبرى التى بيعت مجلداتها قد تعرضت للنهب والتخريب أيام المســـــتنصر بالله عام ١٠٦٩ بعد قرن من انشـــائها .

وبعد ســـقوط الخلافة الفاطمية الشيعية أعلن صـــلاح الدين مذهب الامام الشـــافعى الذى ظل ســـائدا حتى مجىء العثمانيين الأحناف . وكان الســـلطان صـــلاح الدين قد غير من ملامح القاهرة وســـلبها ســـماتها الفاطمية ولا سيما بعدما أمر ببناء قلعته لتكون مقر الســـلطنة وســـكنه . لهذا فتح القاهرة المعزية لتكون مدينة ســـكنية للشـــعب وأقام بها البيمارستان وكان قصرا به الأســـرة وصيدلية ويقدم فيه العلاج والغذاء للمرضى . وكان يفصـــل جناح النســـاء عن الرجال مقاصـــير عليها شـــــبابيك الحديد كما يقول ابن جبير : اتخذت محابس للمجانين ولهم من يتفقد فى كل يوم أحوالهم . وكان صـــلاح الدين يتفقد بيمارستان بصفة دوريـــة .

وأهم ما يتميز به عصـــر الأيوبيين بناء القلعة التى أصبحت سـمة القاهرة حتى اليوم . فعندما تولى صـــلاح الدين السلطنة لم يترك دار الوزارة التى كان الأفضـــل الجمالى قد بناها له . وكانت تقع بشـــمال القصـــر الفاطمى الكبير ومكانها حاليا المبضة بشـــارع الجمالية . وســكنها بقية الســـلاطين الذين خلفوا صـــلاح الدين حتى انتقل الســلطان الكامل الى القلعة وجعلها ديوان مصـــر ومقر الســلطنة حتى أن أقام الخديوى اسماعيل قصـــر عابدين عام ١٨٥٠ ونقل به الدواوين الخديوية .

وقد أخذ صـــلاح الدين فكرة القلعة وهيئتها من القـــلاع الشـــامية التى بناها الصليبيون فوق التلال . فقام صـــلاح الدين مع وزيره قراقوش بتعليق قطعة لحم بالقاهرة فتغير بعد يوم وليلة وعلق قطعة لحم أخرى فى موضـــع القلعة على ارتفاع ٢٥٠ مترا فلم يتغير الا بعد يومين وليلتين .

وكان الهدف من بناء القلعة ليكون بها قصـــر السلطان بعيدا عن أى هجوم مفاجىء يقوم به فلول الفاطميين وعمـــلاؤهم من الاسماعيليين الحشاشين السفاحين بالشام . كما أن القاهرة قد ضـــاقت بســكانها ولا سيما أنها قد أخذت تزحف جنوبا حتى بلغت حدود الفســطاط وتعدت غربا خليج أمير المؤمنين واصبحت بولاق ميناءها . كما أن صـــلاح الدين أراد أن يكون حوله جنوده فى معســـكر لهم وهذا لا يتحقق الا من خلال طباق قلعة .

ففى عام ٥٧٢ هـ/١١٧٧ م كلف الأمير قراقوش ببناء قلعة الجبل فوق بروز بجبل المقطـــم . وفرغ من البناء عام ٦١٤ هـ / ١٢٠٧ م أيام السلطان الكامل .

وقام قراقوش بحفر بئر للقلعة ترفع منه ســاقية يديرها البقر وكانت مياهه عذبة الا أنه لما عمقه أصـــبح ماؤه مالحا .

وكانت القلعة مبانيها مزينة بالرخام وابوابها مذهبة ونوافذهــا مزخرفة . وتطل على القاهرة والفســطاط وعين شمس ويمكن رؤية الاهرامات والنيل منها . وكان الصــعود اليها عن طريق ســلالم متدرجة وكان يمكن للدواب الصــعود فوقها . وداخل اســوارها قصــر الســلطان واســطبلات للخيول والزرافات وبعض الحيوانات . وكان بالقلعة عدة ســجون سـفلية يطلق عليها البئر (الجب) وكانت هذه الســجون مظلمة . وأمام القلعة ميدان الرميلة كان يقوم به الفرســان بتدريباتهم العســكرية وكان يصــل القلعة بالنيل مجرى العيون الذى مازال جزء منه موجودا حتى الآن قرب عين الصــيرة . وكانت المياه ترفع له بواسطة الســواقى علاوة على وجود بئر يوســف بداخلها ليمدها بالماء أثناء الحصــار وكان يطلق على القلعة الجبل نسبة الى جبــل المقطم .

وكان الماء يصــل القاهرة عن طريق الســقائين وكان بها الاســبلة التى كانت تقدم المياه بالمجان وكان الســقاؤن يملئون خزاناتها وكان معينا لها عمال لتنظيفها وينفق على هذه الأســبلة من حبوس الأوقاف التى كانت مخصصة للانفاق عليها .

وأيام العزيز عثمان ابن صلاح الدين تفشى الظلم والضرائب وكان يتجاهر بالمعاصى وشــرب الخمر علانية وأقام بيوت الدعارة وحماها واشــاع أماكن الحشيش وكان يحصــل الضــرائب من الدعارة والحشيش لهذا حمى هذا الفســاد فى نظير الجعل كما يقول ابن اياس وكان يقدم للســلطان نفسه . وكان يطلق على دور الدعارة المزارة وكانت منتشرة بمنطقة قلعة الكبش بالغور .

وأيام العادل أخ صــلاح الدين حدثت مجاعة عام ٥٩٧ هـ/ ١٢٠٠ م . بســبب نقصــان النيل لمدة ثلاث ســنوات متتالية

ويقول ابن اياس : فاضطربت أحوال الديار المصـــرية وأكلت الناس بعضها بعضا . وعدمت الاقوات فى ســـائر أعمال مصـــر (القاهرة) فصــــار الناس من شـــدة الجوع يأكلون القطط والكلاب والحمير والبغال والخيل والجمال حتى ما بقى بمصـــر دابة .. وصـــار الرجل يذبح ابن جاره ويأكله ويذبح واده بيده ويأكله من شـــدة الجوع .. وأعقب هذه المجاعة وباء الطاعون الذى لم يبق ولم يذر .

وفقدت القاهرة فى هذه الشـــدة كثيرا من الأطباء والقابلات والمغســـلات الموتى حيث كانوا يســـتدعون للمرضى أو الموتى وعندما يدخلون بيتا كانوا يذبحون ويؤكلون بعد طبخ لحومهم .

ولما مات العادل خلفه ابنه الكامل . وفى عهده غزا الصليبيون ميناء دمياط الا أنه تصـــالح معهم بعد ما حاصـــرهم هناك . وانشأ الملك الكامل بالقاهرة المدرســـة الكاملية فى بين القصرين وســـماها دار الحديث وأقام ضـــريح الامام الشـــافعى وبجواره بنى ســـبيلا . وخلفه ابنه العادل ســـيف الدين الذى عزله أخوه الصـــالح نجم الدين بعدما ســـجنه بالقلعة حتى مات . وكان الملك الصـــالح قد اســـتكثر من شـــراء المماليك وكثنهم بالقاهرة حتى ضـــاقت بهم . وكانوا ينهبون المتاجر والأســـواق حتى أصـــبح المصـــريون يتندرون بهم يوســـمونهم بأنهم شر مجلوب . وهذا ما جعل الملك الصـــالح يســـكنهم فى قلعة الروضـــة وأطلق عليهم المماليك البحرية وكان يطلق على المماليك فى ابراج قلعة صلاح الدين المماليك البرجية . ومنع الســـلطان نزول المماليك

بالقاهرة . والملك الصالح قد أقام مدينة الصالحية وأنشأ بالقاهرة مدرستى النجمية والصالحية الا انه فى اواخر ايامه هاجم الصليبيون دمياط . بقيادة لويس التاسع . ويقول ابن اياس : فلما تحقق الملك الصالح ذلك أمر باشهار النداء فى مصر والقاهرة بأن النفير عام ولا يتأخر صغير ولا كبير فان العدو قد استولى على البلاد .. فخرج الناس قاطبة وسائر الأمراء وخرج الملك فى محفة فانه كان مريضا على غير استواء .

ودارت المعارك والسلطان كل يوم يزداد مرضه حتى يئس الأطباء من شفائه . ومات الملك الصالح بالمنصورة (فحمل السلطان بعد أن مات فى زورق تحت الليل وجىء به الى قلعة الروضة . ويصف ابن اياس : ولم يشعر أحد من الناس بموته . فكانت المراسيم تخرج كل يوم بعلامة السلطان . فلا يشك من يراها أنها ليست بخط السلطان الصالح . وكان الأمراء يجتمعون فى المركب ويظهرون أن السلطان مريض . وكانت الأطباء تدخل على جارى العادة فى كل يوم وكان طبق المزاور (الطعام) يدخل فى كل يوم ويخرج على جارى العادة .

كل هذا والمعركة دائرة على أشدها بين الصليبيين والمماليك الأيوبية . وكان لشجرة الدر الفضل فى أنها تماسكت وقامت بهذا الدور المصيرى واتقنت تمثيلية مرض السلطان مع الأمير حسام الدين لاجين والأمير فارس الدين اقطاى . وتكتموا خبر موت السلطان حتى لا تنهار القوات فى جبهتها وفى القتال ، وحتى

لا يطمع الصليبيون فى مواصــلة الزحف للقاهرة . وأرســلوا خفية لابنه توران شاه ليحضــر للأهمية القصــوى وكان طلبه موقعا عليه باســم الســلطان . فحضــر مع عســاكره الأكراد من حصن كيفا الى المنصورة وعلم بوفاة ابيه ونصب سلطانا .

لقد كان الجميع على ولائهم للســلطان الراحل بما فيهم زوجته شــجرة الدر التى جعلت جبهة القتال متماســكة حتى حققت النصر ، وأســـر لويس التاســـع فى بيت القاضى ابن لقمـــان .

(٨)

المماليـــك يحـــكمون

شـــهدت مصر والقاهرة الحكم الوراثى ابتداء من الدولة الطولونية . مرورا بدولة الاخشـــيد والفاطميين والأيوبيين . لكن حكم المماليك الذى بصـــدد الحديث عنه كان حكما يتســـم بنظرية البقاء للأقوى والوصـــول اليه لمن استطاع سبيلا .

فقد حكم ســـلاطين المماليك مصـــر ٢٥٨ عاما من خـــلال ســـلطنتين متصـــلتين الأولى كانت ســـلطنة المماليك البحرية التى حكمت منذ ١٢٥٠ م الى ١٣٨٢ م . والســـلطنة الثانية حكمت حتى عام ١٥١٨ عندما جاء العثمانيون . أى أن المماليك قد حكموا مصر أكثر من قرنين ونصف .

فمصر حكمها منذ عصـــر الفتح ٩٨ واليا وأيام بيت طولون ٥ أمراء ثم خلفهم ١٣ واليا عباســـيا أعقبهم ٥ أمراء من بيت الاخشـــيد و ١١ خليفة فاطميا و ٨ سلاطين أيوبيين . أما فى السلطنة المملوكية الاولى فقد حكمها ٢٤ سلطانا مملوكيا من بينهم ١٢ سلطانا من بيت قلاوون .

أما الســـلطنة المملوكية الثانية حكمها ١٩ ســـلطانا من بينهم

الخليفة العباسى المستعين بالله الذى حكم لعدة أيام . ورغم مجىء السلطان العثمانى سليم الأول وقضى على هذه السلطنة الا أن المماليك تكتلوا وقويت شوكتهم واستطاعوا حكم مصر حكما ذاتيا فى القرن ١٨ وظلوا حتى هزمهم نابليون وقضى عليهم محمد على فى مذبحة المماليك عام ١٨١١ . أى أن المماليك ظلوا زهاء قرنين ونصف يحكمون مصر ويضعون سياستها حتى ابان العصر العثمانى .

وهؤلاء المماليك أصلهم من الرقيق الأبيض الجلابة كما كان يسميهم المصريون وهم من القوقاز وبلاد الترك (الأتراك) والتركمانستان . وكان هؤلاء يباعون ليصبحوا جنودا . ولقد استعان بهم الأيوبيون ولا سيما الملك الصالح الذى كثر فى شرائهم واشترى سلاطين المماليك منهم الكثيرين حتى الأمراء المماليك باتوا يشترونهم ليقووا بهم نفوذهم . فكان لكل أمير (وقتئذ) مملوكى مليشياته من هؤلاء المماليك الأرقاء .

وكان من بين سلاطين المماليك حكاما عظاما دافعوا عن الاسلام وحموا دياره بمصر والشام . وكان الرعيل الأول منهم محاربين أشداء انتصروا على الصليبيين فى دمياط وحرروا فلسطين والشام من هؤلاء الفرنجة وردوا التتار على أعقابهم فى عين جالوت . وكان أغلبهم سلاطين ضعافا لم يصمدوا أمام مماليكهم فخلعوا أو عزلوا أو قتلوا .

وكان نقطة ضعف المماليك أنهم أرقاء لا يحق لهم شرعا ولاية الأحرار ولم يكن من بين هؤلاء السلاطين معتوق سوى شجرة الدر التى كانت حرة بعدما كانت جارية للملك الصالح الا أنه عتقها بعدما أنجبت له ولده خليل فتزوجها بعده .

وعندما تسلطن المماليك عارضهم قبائل العرب بالشرقية

والبحيرة والصـعيد مطالبين بالملك حسـب مقولة الخلافة فى قريش . وهذه القبائل قد وفدت مع الفتح الاسـلامى . كما أن الأيوبيين كانوا يطالبون بالسـلطنة لأنها ارثهم وما يشـيع لهم أنهم عـرب أكراد . والحـزب الثالث كان ممثلا فى الشـيعة الفاطميين وكانوا قد تواروا خلف تقيتهم لأن العصـر لم يصبح عصـرهم الا أنهم كانوا وراء الفتن فى مصـر والشـام وفلسطين ولا سيما عندما تحالف الحشـاشون جناحهم العسـكرى مع الصليبيين ضد المسلمين هناك .

ومصـر والمصـريون منذ عصر الفراعنة وحتى ثورة يوليو ١٩٥٢ كانت تحكم حكما أجنبيا . لهذا لم يشـاركوا فى حكم بلادهم حتى الجيش لم يلتحقوا به لأن الحكام عزلوهم عنه حتى لا يثوروا عليهم . وأول من جندهم محمد على فى مطلع القرن قبل الماضى .

فالشـعب المصـرى فى نظر حكامه كان رعية تعمل فى الأرض سـخرة وتدفع المغارم والضـرائب وتقدم الخراج للمخازن الملكية أو السـلطانية . وهذا الاقطاع العسكرى بلغ مداه فى الروك السلطانى فى عصر المماليك .

وكانت خزائن مصر منذ الأيوبيين تنفق على رواتب الجند وشـراء المماليك وكانت هذه الخزائن خاوية بسبب الحروب ضد الصليبيين بالشـام فكانت تفرض المغارم على التجار والحرفيين لدفع مرتبات الجنود وشـراء المماليك ليقوى نفوذ السـلاطين ويحكمون البلاد بالقهر .

وكان المملوك أول تعيينه يصبح جنديا ثم يترقى ليصـبح أميرا على مجموعة من المماليك .

ورغم استقلال السـلاطين المماليك الا أنهم ظلوا محافظين على تبعيتهم للخـلافة العباسـية بالقاهرة التى أحياها الظاهر

بيبرس عام ٦٥٩ هـ/١٢٦١ م بعد سـقوط الخلافة الأولى ببغداد . وظلت الخلافة العباسية الثانية قائمة بمصـر ٢٥٧ سنة حتى أسـقطها السـلطان سليم العثمانى عام ١٥١٨ بعد دخوله مصر وسـجن آخر خلفائها بالآستانة .

وكان لاحياء الخلافة العباسـية بالقاهرة أن جعلها محط أنظار العالم الاسلامى ولا سيما فى المشـرق وفى الهند حيث فتح ملوكها بلادهم للتجار المصريين وكانوا يقدمون الهدايا للخلفاء العباسيين بالقاهرة .

لهذا نجد أن مصر والقاهرة منذ الفتح الاسـلامى فى القرن السـابع ظلتا خاضعتين للخلافة التى تعددت أسماؤها من راشدية وأموية وعباسـية وفاطمية وعباسية ثم العثمانية التى أسـقطها أتاتورك بتركيا عام ١٩٢٣ . فطوال حوالى ١٣ قرن كانت مصـر تحت ظلال خلافة شرقية أو مصرية أو تركية .

وكانت مهمة الخليفة العباسى بالقـاهرة مهمة شـرفية واسمية وكان عليه تقليد السلطان المملوكى فيضـفى هالة دينية حوله يخفى وراءها رقه لأنه مفوض بالحكم من الخليفة العباسى الذى من آل البيت ، وكان كل سـلطان يعلن ظاهريا أنه قسـيم أمير المؤمنين العباسى وهذا اللقب ابتدعه الظاهر بيبرس .

وكانت ديار مصر تدار حسـب نظرية (الروك السلطانى) وهذا معناه أن كل الأراضى الزراعية كانت ملكا للسلطان والروك كان ٢٤ قيراطا . وكان يقسـم عند تولى كل سـلطان أيوبى أو مملوكى . فكان للسلطان ٤ قراريط وللأمراء ١٠ قراريط وللجنود ١٠ قراريط . ولم تكن السلطنة بعده تدفع رواتب . وما كان على الفـلاحين الا زراعة هذه الأراضى وتسـليم غلتها لأصـحاب

الروك . وهذا الاقطاع العســكرى كان متبعا أيضا فى الدولة العثمانية فى أول عهدها .

والســلاطين لم يكن عليهم اى واجبات يلتزمون بها أمام الشــعب ولم يكن للمصــريين أى حقوق لهم تجاه حكامهم . لهذا لم يهتم المماليك بالتعليم او الصحة أو المرافق . وما قام به بعض الســلاطين من انشــاء جوامع او أسبلة او مدارس هى انشاءات خاصة أنعموا بها .

وقد قسم المقريزى المجتمع المصــرى أيام حكم المماليك الى ســبعة طبقات اجتماعية وهى طبقة اهل الدولة وهم الســلطان والأمراء ويليهم أهل اليســار من التجار والقسم الثالث الباعة وهم متوســطو الحال من التجار ويلحق بهم أصحاب المعايش وهم الســوقة والقسم الرابع اصــحاب الفلح (الفلاحون) وهم أهل الزراعات والحرث ســكان القرى والريف والقســم الخامس الفقهاء وهم جل الفقراء (الصــوفية) وطلاب العلم والكثير من أجناد الحلقة . والقسم السادس أرباب الصنائع والأجراء وأصحاب المهن والقسم السابع ذوو الحاجة والمسكنة .

وأول حقوق مكتوبة نالها المصــريون أيام الســلطان الناصــر محمد بن قلاوون عام٧١٦ هـ/١٣١٦ م . وكان الهدف من اصدار مرسومه كبح الظلم واستبداد أمراء المماليك والجنود وقد نص كما يقول (النويرى) فى (الالمام) على اســقاط المكوس على الغلال الواردة لســواحل القاهرة وابطال نصــف ضــريبة السمسرة عليها ومنع الرســوم الاســتثنائية بشتى صــورها ولا تجبى اى مبالغ عن الجســور والترع والقنوات وعدم جمع مقررات للجيش والفرســان ورفع ضــريبة المــلاهى والأفراح وابطال حماية المراكب النهرية وغيرها من الأوامر التنفيذية .

وهذه الوثيقة قد أظهرت واجبات الدولة أمام المحكومين لأول مرة فى مصر .

وشـــهدت القاهرة شـــجرة الدر أول ســـلطانة تحكم مصر فى العصـــر الاســـلامى . فقد تسلطنت بعد مقتل الملك توران شـــاه آخر ســـلاطين الأيوبيين وبدأت بتوليها السلطنة المملوكية عام ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م . وقبل لها الأمراء الأرض من وراء حجاب اعلانا عن خضوعهم لها . وكانت توقع المراسيم باسم أم خليل .

ويقول ان اياس : فلما تم أمرها فى السلطنة فرقت الوظائف الســـنية على الأمراء وفرقت الاقطاعات (الروك) الثقال على المماليك البحرية . وكان الأمير عز الدين أيبك التركمانى مدير المملكة .

وخطب الخطباء فوق منابر مصـــر باسم شـــجرة الدر فبعد الدعاء للخليفة العباسى ببغداد كان يقال : واحفظ اللهم الجهة الصـــالحية ملكة المســـلمين عصـــمة الدنيا والدين ذات الحجاب الجميل والســـتر الجليل والدة المرحوم خليل زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب .

ولما بلغ الخليفة العباسى المستنصر بالله أن مصـــر تولى أمرها شـــجرة الدر أرســـل رسالة للأمراء المماليك عنفهم فيها قائلا : اذا لم يكن عندكم رجال أرســـلنا لكم من يحكمكم . وتخلت شـــجرة الدر عن الحكم بعد ثلاث شـــهور بعدما تزوجت عز الدين أيبك وكان أول من حكم مصـــر من المماليك . لكن حزب المماليك الأيوبيين رفضـــوه وطالبوه بعودة الســـلطنة لآل ايوب وكان يتزعمهم الأمير المملوكى أقطاى . فعين الســـلطان الأيوبى الأشرف قســـيما لأيبك فى السلطنة وكانت خطبة الجمعة باسم السلطانين

المملوكى أيبك والأيوبى الأشرف . وضربت النقود (السكة) باسميهما . لكن أيبك انفرد بالسلطنة بعدما قضى على خصومه .

فلقد دبر كمينا بالقلعة للأمير اقطاى وبعدما اغلقت أبوابها عليه قتل . والقى برأسه من فوق سور القلعة فوق مماليك أقطاى الثائرين . وحاول هؤلاء الهروب من القاهرة الا أن أبوابها كانت موصدة فتوجه الأمير بيبرس ومماليكه الى باب القراطين وأحرقوه وفروا للشام . وسمى هذا الباب بالباب المحروق .

وكان أيبك قد قوى نفوذه وأخذ ينصرف عن شجرة الدر فأمرت خصيانها فقتلوه بالحمام بالقلعة فشاع خبر مقتله . وقبض ابنه المنصور على شجرة الدر وسلمها الى امه واخذ جواريها بضربنها بالقباقيب حتى ماتت وسحبنها من رجلها . ثم قام الخدم بالقائها من فوق السور عريانة وظلت ثلاثة أيام لم تدفن .

وتسلطن الأمير المنصور وكان صبيا عمره ١١ سنة وفى عهده هاجم التتار بغداد وقتلوا الخليفة . فاجتمع الأتابكى قطز بالقضاة ومشايخ الأزهر لأن البلاد معرضة للدمار والخراب من التتار وبيت المال خاو والسلطان صبى . الا أن المجتمعين أصدروا قرارا بخلعه وجمع الأموال من الشعب والتجار وتولى قطز السلطنة . حيث قام بالقبض على الأمراء المنشقين وولى بيبرس اتبك العسكر .

وكانت رسالة قد وصلت قطز من هولاكو ملك التتار بعدما أحرق دمشق جاء فيها : يا أهل مصر أنتم قوم ضعفاء فصونوا دماءكم منى . ولا تقاتلونى أبدا فتندموا .

لكن شعب القاهرة وتجارها تكتلوا بأموالهم وأنفسهم ومعهم شعب مصر وعربان الشرقية والغربية ليدافعوا عن

بلدهم . وخرج قطز من القلعة واتجه الى عين جالوت وكان انتصار باهر عام ٦٥٨ هـ/١٢٥٩ م وقبل عودته ضم الشـــام وحلب لمصر بعدما كانت في أيدى الأيوبيين . الا أن قطز عند عودته ظافرا الى مصر قتله الأمير بيبرس عند القرين حيث دفن هناك . وتسلطن بيبرس بطل دمياط وعين جالوت ودخل القاهرة بالليل وطلع قلعة الجبل ، ويقول ابن اياس : فلما طلع النهار نادى المنادى فى مصر والقاهرة (ترحموا على الملك المظفر قطز وادعوا بالنصر للملك الظاهر بيبرس البندقدارى . وعمل الملك بيبرس الموكب بقلعة الجبل وخلع على الأمراء .

وقصة احياء بيبرس الخلافة العباسية بالقاهرة بعد سقوطها فى بغداد عندما حضر شخص من ذرية بنى العباس عام ٦٥٩ هـ .. يقال انه ابن الخليفة الظاهر بأمر الله حفيد المستنصر بالله . ولما علم الظاهر بيبرس بقدومه للمطرية خرج لاستقباله وكان يدعى الامام أحمد العباسى . ولما رآه الملك بيبرس نزل من على فرســه وتعانقا ثم رتبا موكبا اتجه القاهرة ودخلا من باب النصر وســط الزينات ، ووصـــل الموكب القلعة . ونزل الأمام فى قاعة الأعمدة . وبعد عدة أيام عقد الملك بيبرس مجلســـا دعا فيه القضاة والمشايخ والأمراء والتجار وحضــره العربان الذين جاءوا مع الأمام أحمد الذى حضر هذا الاجتماع . وكان الشيخ ابن عز الدين قد حضره .

وطلب تاج الدين الشـــافعى قاضى القضـــاة من العربان الشـــهادة بصـــحة نســـب الأمام احمد للبيت العباسى . فشهدوا وحكم القاضى بصحة النســـب . وبايع القضـــاة بالخلافة ولقبوه بالمستنصر بالله . وقام الامام بمبايعة الملك بيبرس بالسلطنة وولاه على البلاد الاســـلامية وما سيفتح عليه من بلاد الكفرة وبهذا ردت الخلافة لبنى العباس .

وبعد شـهر أقام الملك بيبرس حفـلا بالمطرية وقام القاضى ابن لقمان بالصـــعود فوق المنصـــة حيث تلا على الأمراء الحاضرين تقليد الخليفة (مرســـوم) ونصب لبيبرس الســلطنة والبســـه خلعة السلطنة وهى جبـة ســوداء بطوق ذهب وعمامة ســوداء بها عذبة ذهب وســيف بداوى . ولبس بيبرس الخلعة وركب فرســـه وســـار بموكب ضخم للقاهرة ودخلها من باب النصـــر وكانت الشـــوارع قد زينت وكان أحدهم يحمل تقليد الخليفة فوق رأسه حتى صعدوا للقلعة .

ويعتبر هذا الخليفة أول خليفة عباسى يبايع الترك (المماليك) فى مصر . وأرســله بيبرس على رأس جيش لبغداد ليستردها من التتار الا أن خبره لا يعرف فلقد انهزمت قوات بيبرس عند الأنبار . ولم يعد له وجود .

الا أن عام ٦٦٠ هـ/١٢٦٢ م وصـــل الى مصـــر امام أحمد آخر ادعى أنه من آل العباسيين وعقد له الملك بيبرس بالقلعة جلســـة لاظهار خلافته ليبايعه بالســلطنة فبايعه القضاة ولقب بالخليفة الحاكم بأمر الله وكان يخطب باسمه فوق المنابر بمصـــر والشـــام وهو جد الخلفاء العباسيين الذين تعاقبوا بالقاهرة .

وأبطل الظاهر بيبرس الحشيش وأمر بأحراقه وضـــرب الخمارات واراق موردها ومنع الخانات من الخواطى (المومسات) كما يقول ابن اياس .

أما الســلطان المنصور قلاوون وهو ســـابع الســلاطين المماليك حقق انتصـــارا عظيما على التتار الذين اســـتولوا على حلب بالشـــام الا أنه انتصـــر عليهم فى معركة المرج الأصـــفر عام ٦٨٠ هـ/١٢٨١ م وعاد الى القاهرة ظافرا وســـط احتفالات والســلطان قلاوون مازال بيمارســتانه حتى اليـوم وكان يسمى

البيمارستان المنصورى وكان قد بناه تكفيرا عن سيئاته عندما أمر عساكره بقتل الناس لأنهم خالفوا أوامره وأخذوا يقتلونهم ثلاثة أيام عمال مع بطال حتى تشفع لهم القضاة ومشايخ الأزهر . فعفا عنهم . فلما ندم بنى هذا المستشفى وأوقف عليه الخيرات .

وأيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون كان سنجر الشجاعى أحد أمراء المماليك مكروها من الشعب ولما قتل بالقلعة سار بعض المماليك برأسه وطافوا بها فوق رمح بشوارع القاهرة والفسطاط . وكلما مر المشاعلية بها أمام الناس كانوا يعطون الفلوس لهم ويأخذون الرأس الى دورهم ويصفعونها بالقباقيب والنعال تشفيا . وظل المشاعلية يدورون بها ثلاثة أيام تدفع لهم حتى اغتنوا من كثرة الفضة . لأنه كان قاسى القلب .

وأبطل السلطان الناصر فيما أبطله من المغارم ضمان الغوانى وكان جبى أموال على البغاء وكانت الضامنة للنسوة الداعرات أو المغنيات أكبر مصدر ضرائبى للسلطنة . ولو نزل اسم امرأة عند الضامنة لما قدر أكبر من فى مصر منعها عن البغاء أ و الفاحشة . ويقول ابن أياس معلقا : وكان حصل من ذلك لنساء الأكابر وبناتهم غاية فى الفساد ولا يقدر أحد يمنعهم من ذلك .

كانت سلطنة المماليك سلطنة عفنة متسلطة من المغامرين الذين ليس لهم جذور عرقية تربطهم بمصر . لهذا لم يكن همهم سوى تحقيق الأموال وجمعها باى ثمن . وكان أمراؤهم يعيشون فى قلق لأن مصيرهم كان يعتمد على ولاء أعوانهم لهم . وكان هذا أيضا شعور السلطان نفسه . فها هو السلطان « برقوق » بعد ست سنوات وعدة شهور من تسلطنه يختفى من القلعة لينفذ بجلده ثم يعود للسلطنة بالقوة مرة ثانية .

وكان ابنه الملك فرج سلطانا لمدة ست سنين وعدة شهور عزل وعاد ثانية للسلطنة . الا أنه صفى مماليك أبيه الذين ثاروا عليه . فكان يسكر الى نصف الليل ويخرج لحوش القلعة فيعرض عليه المماليك المسجونون بالأبراج وكان يجعلهم فى صفوف ويذبحون كل واحد على حدة أمامه . ويدوس رأسه بقدمه . فكان بعد هذه المذبحة التى ذبح فيها ٢٠٠٠ مملوك . كان كل يوم يذبح بعدها عشرين مملوكا وكان قد صبر عليهم وسامحهم الا أنهم خانوه وتمردوا عليه .

وقد قتل الملك فرج بأيدى جماعة من الحشاشين بينما كان فى قلعة دمشق . والقوا بجثته فوق كوم زبالة وظل ثلاثة أيام فرجة للناس الى أن دفن .

وكان الخليفة العباسى المستعين بالله مع الملك فرج بدمشق فاعلن توليته السلطنة الملوكية واحضرت له خلعة السلطنة . وكان المماليك قد طلبوا منه هذا . فاشترط عليهم أنه لو خلع من السلطنة يظل بالخلافة . فوافقوا ودخل المستعين مصر فى موكب عظيم وطلع القلعة وسكن بها بعد ما كان يسكن فى منظرة الكبش . الا أن الأتابك شيخ كان الآمر الناهى . لكن الأتابك شيخ عزل المستعين وتسلطن لكن ظل المستعين بالخلافة سجينا بالقلعة حتى خلعه الملك المؤيد شيخ وعين أخاه داود خليفة . وكان تسلطن المستعن ستة أشهر . وتولى الملك أبو السعادات بعد أبيه الملك المؤيد وكان عمره سنة وثمانية شهور وسبعة أيام ولقب بالمظفر ولما احتفل بتوليه دقت الكئوسات داخل القصر وكان فى حجر مرضعته جالسة على كرسى العرش . فخاف واخذ يبكى حتى أغمى عليه . ومات بعدها .

وأيام الملك الأشرف اينال قامت فتنة بالقاهرة ضده

وانحاز الخليفة العباسى حمزة لها • فطلبه الأشرف وحضر بين يديه بالقلعة ووبخه . فلم ينطق الخليفة . الا أن الأشرف عزله وسجنه بالاسكندرية .

لكن الخليفة حمزة قال : اشهدوا على أنى قد خلعت نفسى من الخلافة وخلعت السلطان اينال من السلطنة . وكان قاضى القضاة علم الدين البلقينى حاضرا . فأفتى أن خلع الخيفة للسلطان لا يصح لأن الخليفة قد بدأ بخلع نفسه أولا . ولما خلع السلطان لم يكن خليفة وغير مولى الخلافة . فلا يصح له عزل السلطان .

وكان السلطان الناصر أبو السعادات ابن الأشرف قايتباى طائشا . ففى آخر رمضان أمر أن يكون العيد بالغد حتى ولم ير الهلال . وحاول قاضى القضاة أن يثنيه لكنه عزله . ولم ير الهلال فى تلك الليلة . وأصبح الهلال بعد غد لكن السلطان لم يحضر صلاة العيد ولم يصعد أحد لتهنئته الا أن الخليفة العباسى صعد ولم يقابله وأمره بالانصراف ومن نوادره أنه نادى بالقاهرة بتعليق قناديل على البيوت والحوانيت وكان يسير ليلا مع حرسه بعد العشاء . ولو صادفه شخص بالشارع كان يقطع أذنه وأنفه • وكان يسحل الأشخاص ويسلخ جلودهم وهم أحياء عقابا لهم .

وأمر بتبيض المحلات بالأسواق والشوارع فى يوم وليلة وكان لو رأى امرأة أعجبته كان يدخل بيتها غصبا ويأخذها عنوة مع ضرب زوجها فى وسط بيته . لهذا كانت أفعال هذا السلطان المجنون قد جعلت الأمراء ينصرفون عنه ولا يسمعون كلامه ومن بينهم خاله الأمير قانصوه . الا أنه قتل فى كمين عند باب الوزير وكان سنه ١٧ سنة وخلفه خاله قانصوه (غير قانصوه الغورى) الا أنه خلع •

وكثر فى عصر المماليك الشراكسة عزل الخلفاء واهانتهم وعزل القضاة . وكان من عادة السلاطين أثناء وباء الطاعون وما اكثره أنهم يخشون على أنفسهم فكانوا يخففون من المظالم والمحابيس . وكان ينادى بالأسواق برفع هذه المظالم ولا سيما الأموال المشاهرة التى كان السلاطين يحصلونها شهريا من التجار والأسواق والحوانيت .

وأيام السلطان الغورى أرسل المنادين ليعلنوا أن السلطان قد منع اخذ المكوس على الغلال بسواحل مصر العتيقة (الفسطاط) وبولاق .

وكانت هذه المكوس تحصل على كل أردب قمح أو شعير أو فول يباع أو يشترى فى السوق . وكان قبله يحصل نصف فضة (عملة) الا أنه زادها لثلاثة أنصاف فضة وكان يطلق عليها الموجب ولما أبطلها شاع الخبر بأن السلطان أبطل المشاهرة والموجب فأخذت النسوة يزغردن من الطيقات بالبيوت وخلف المشربيات . وكان الناس ينقطون المشاعلية عند سماعهم هذا النداء . وكان الزينى بركات يحصلها عنوة وكان لهذا السوقة كما يقول ابن اياس . تجور فى أسعار البضائع ولا يجسر من الناس أحد يكلمهم .

فيقولون : علينا مال السلطان نورده كل شهر .

بعد فتح السلطان احمد الفاتح عام ١٤٥٣ القسطنطينية انقطعت القوافل التجارية البرية من الصين والشرق لأوربا لأن البابا فى روما فرض حصارا اقتصاديا على السلطنة العثمانية .

هذا ما جعل السلطان المملوكى اينال بالقاهرة يفتح مصر والشام لتدفق التجار الأجانب على سلطنته . ففتح لهم الوكالات والأسواق والمخازن وأصبحت أسواق القاهرة عامرة بالسلع من الصين والهند وفارس . وأصبح قصر

السلطان بالقلعة يموج بالسفراء والتجار الأجانب ولاسيما من جنوة والبندقية وفرنسا ووقع السلطان اينال اتفاقية تجارية مع فرنسا .

وأيام السلطان قايتباى وقع اتفاقية مع سفراء فلورنسا عام ١٤٨٧ فيها تسهيلات وامتيازات تجارية للفلورنسيين . وهذه الاتفاقية اعتبرت أى عقد بين التجار المصريين والفلورنسيين بالبيع يعتبر نهائيا وملزما للطرفين . وسمح السلطان للرعايا الفرنسيين بالوصول للقاهرة واستئناف القضايا أمام السلطان نفسه . وكان الشاكون يصلون للقاهرة فى حماية سلطانية لاستئناف الأحكام أو الشكوى أمام السلطان . ولهم حق الوصول للقاهرة فى أى وقت .

وكان السلاطين والأمراء المماليك قد أثروا من ازدهار التجارة العالمية بمصر . وكانت وكالات القاهرة عامرة بالبضائع من الشرق والغرب . وكان ميناء بولاق والفسطاط فى القرن ١٥ ، ١٦ من أهم الموانىء وكانت آلاف السفن ترسو على ساحل القاهرة متوجهة بسلع الشرق للاسكندرية ودمياط ورشيد وكانت القوافل تصل من الشام والسويس . والسفن تصل من قوص تحمل التجارة الأفريقية والهندية والصينية . وكان عمال الجمارك يعملون ٢٤ ساعة (*) .

وظل هذا الرواج الاقتصادى حتى عام ١٤٩٨ عندما اكتشف فاسكودى جاما البرتغالى طريق راس الرجاء الصالح والمحيط الهند لتصبح البرتغال مركز التجارة العالمية بدلا من مصر ومما زاد فى هذا الركود دخول العثمانيين مصر بعدها بعشرين عاما .

(*) أنظر كتاب (أحوال مصر من عصر لعصر) . للمؤلف ، طبعة دار العربى للنشر .

(٩)

الأســـواق

لقد كان أهم ما يميز الفسطاط والقاهرة الأســـواق . ففى العصــــر المملوكى كانت القاهرة بها أســـواق شـــهيرة . وكان ســـوق برجوان من أكبر الأســـواق الحياتية والمعيشية . فكان يباع فيه الخبز واللحوم والعطارة . وبه مطاعم الشـــواء والطبخ . وكانت تباع الطيور فى ســـوق الدجاجين والفاكهة بدار الفاكهة حيث كانت تباع بالجملة للبياعين . وكانت هذه الأســـواق تقـــام فى المناطق الســـكنية أو على أطرافها . وكان يوجد ســـــوق الشـــراشبين يباع به الســــلع والملابس ولا ســــيما ملابس التشـــريفة القديمة التى كان أمراء المماليك يبيعونها وكان ســـوق الخلعيين (الكانتو) لبيع الملابس المســـتعملة وســـوق الأباريين لبيع الخيوط وســـوق الســـلاح وكان فى بين القصـــرين تباع فيه الأسلحة بأنواعها والرماح والسهام والطبنجات ٠

ولما زار ناصر خسرو الفسطـــاط وصف سوق القناديل بها أيام العصـــــر الفاطمى قائلا : لا يعرف ســــــوق فى مثله فى أى بلد . وفيه كل ما فى العالم من طرائف .. رأيت الاوعيــــة والأمشـــاط ومقابض الســـكاكين . ورأيت أيضـــا معلمين مهرة

ينحتون بللورا (نوع من الزجاج النقى الصخرى) غاية فى الجمال · ألطف وأكثر شفافية من بللور المغـرب · ورأيت أنياب الفيل من زنجبار وجلد بقر من الحبشـــة يشـــبه جلد النمر ويعملون منه النعال وفى العصـــر الطولونى كانت أســـواق الطوائف متخصصة من بينها ســـوق العيارين فيه البزازين والعطارين وســـوق الفاميين (الثوم) وفيه الجزارون والبقالون والشـــوائون (كبابجية) وسوق الطباخين وفيه الصيارف والخبازون والحلوانية .

ولاحظ ناصـــر خســـرو بالقاهرة والفسطاط أن التجار فى مصـــر كانوا يبيعون بأســـعار محددة واذا خالفها التاجر أو غش فيها كانت توقع عليه عقوبة التشـــهير . كما لاحظ أن البقالين والعطارين وغيرهم كانوا يبيعون بضـــاعتهم فى أوعية خاصـــة من الزجاج والخزف والورق (أكياس) . فلا يحتاج المشـــترى أن يحمل معه وعاء عند الشـــراء .

وتقول ســـهام أبو زيد فى (الحســـبة فى مصر الاسلامية) تصف شكل الأســـواق وأســـماءها . فتقول عن القيســـاريات والخانات بأنها عدة صـــالات عليها قباب ولها أروقة وفيها مكان للماء . وخانات القاهرة أســـواق التجار المزدحمة ويرجع تاريخها الى عصـــر الفاطميين . وتقول عن الوكالات بأنها أماكن للتجار الشـــرقيين والأســـواق كانت عبارة عن حوانيت وكانت تظلل بالحصـــر أو الســـقوف الخشـــبية . والفنادق والوكالات كانت بنايات واســـعة من عدة طوابق وملحقا بها مخازن ولها فناء داخلى به البضـــائع والدواب . وبها حمام ومخبز ومقبرة وتحاط بسور وحديقة . وكان التجار يضـــعون أموالهم وبضائعهم بالوكالات وهى فى مأمن لأن عليها حراســـة . وكانت "وكالة تضم تجارا من نفس البلد كالمغاربة والشـــوام واليمنيين والهنود والفرس .

ولكل طائفة أو حرفة كان لها سـوقها أو حارتها . وكانت توجد أسـواق حول أبواب القاهرة كسـوق باب الفتوح وسوق باب الزهومة وسوق بين القصرين .

ومن الأسـواق التى وصـفها المقريزى سوق الكفتيين وبه عدة حوانيت لعمـل الكفت وهو تطعيم أوانى النحـاس بالذهب والفضـة . وكان النحاس المكفت شـائعا فى البيوت . وسوق اللجميين وتصـنع به آلات اللجم من الجلد والسـروج والأخفاف الجلدية . وسـوق الصـناديقية وكان يصـنع به الأبواب والنوافذ والمنابر والأسـرة والدواليب والصـناديق وكلها من الخشـب . وكانت تتطعم بعض الأخشـاب بالعاج والصدف . وصـف سـوق قصبة القاهرة بأنه عامر بالحوانيت بها أنواع المأكل والمشـرب والمتعة .

وكانت أشـهر الوكالات فى عصـر المقريزى وكالة قوصون حيث كان ينزلها بضـائع من الشـام كالزيت والصابون والفستق والدبس (عسل) والجوز واللوز والخرنوب .

ويصـف المقريزى بقية أسـواق القاهرة فيحدثنا عن سوق الشمـاعين وكان يبيع الفوانيس بأنواعها فى رمضان . وكان يباع به شـموع للمواكب والأفراح ويصـل وزن الشـمعة قنطارا وبعضـها عشـرة أرطال أو شـموع صـغيرة . وكانت الشموع الكبيرة تؤجر وتجر على العربات . وسـوق الجوخيين لبيع قماش الخوخ (نوع من الصـوف) المسـتورد . ولقد كان يؤثر على حركة هذه الأسـواق الأوبئة والمجـاعات وعراك المـاليك مع بعضـهم فأبان الفتن كانت تغلق الحوانيت والأسـواق والوكالات أسواقها لتجنب الجلبان كما يقال المقريزى .

وكان يوجد بالأسواق المخبز لخبز العيش وبيعه فى الاسواق والحوانيت كما ان الأفران كانت لخبز العجين الذى ترسله البيوت نظير جعل شهرى .

ولفتت الحمامات بالقاهرة الرحالة فوصفوها .. فعبد اللطيف البغداد الذى زار مصر فى القرن ١٢ وقد عاصر صلاح الدين الأيوبى وصف حمامات القاهرة قائلا : وأما حماماتهم فلم أشاهد فى البلاد أتقن منها وصفا ولا اتم حكمة ولا أحسن منظرا ومخبرا . أولا فان أحواضها يسع الواحد منها ما بين راويتين الى أربع راويات وأكثر من ذلك يصب فيه ميزابان حار وبارد . وقبل ذلك يصبان فى حوض صغير جدا مرتفع . فاذا اختلطا فيه جرى منه الى الحوض الكبير . وهذا الحوض نحو ربعه فوق الأرض وسائره فى عمقها ينزل اليه المستحم فيستنقع فيه . وداخل الحمام مقاصير بأبواب . وفى المشلح ايضا مقاصير لأرباب التخصص حتى لا يختلطوا بالعوام ولا يظهروا على عوراتهم. وهذا المشلح بمقاصيره حسن القسمة مليح البنية وفى وسطه بركة مرخمة وعليها أعمدة وقبة . وجميع ذلك مبيض السقوف والجدران مبيضها مرخم الأرض بأصناف الرخام مجزع باختلاف الوانه . وترخيم الداخل يكون أبدا أحسن من ترخيم الخارج وهو مع ذلك كثير الضياء مرتفع الأزاج . جاماته مختلفة الألوان صافية الأصباغ بحيث اذا دخله الانسان لم يؤثر الخروج منه لأنه اذا بالغ بعض الرؤساء أن يتخذ دار الجلوس وتناهى فى ذلك لم تكن أحسن منه .

وحدثنا عن موقد الحمام فسماه بيت النار وكيف يسخن قدور الماء التى يخرج من اعلاها مواسير (انابيب) تغذى الحمام بالماء الساخن . ويفرش أرض الموقد (المتوقد) بخمسين أردب ملح لأنه يحفظ الحرارة كما يقول المقريزى .

واضـــافة لما قاله البغدادي نجد أن بعض الرحالة قد زاروا هذه الحمامات فقالوا ان أرضـــية الحمام كانت مغطاة بالسجاجيد وكان يوجد بها المدلكون وكانت مفتوحة صـــباحا للرجال ومســـاء للنســـاء وكانت العرائس يذهبن مع صاحباتهن وأقربائهن لتتزين والاستحمام يوم الزفاف .

وكان يوجد بالحمامات الماشـــطة والبـــلانة لتزيين المـــرأة وتصـــفيف شـــعرها وكانت الجوارى يقمن بتدليك النســـاء وكان أول حمام قد بناه عمرو بن العاص بالفسطاط وكان ضـــيقا فأطلق عليه حمام (الفار) .

وكان لبعض الحمامات بابان أحدهما للرجال والآخر للنساء . وكان الحمام في العصـــر المملوكى عبارة عن ثلاث قاعات الأولى درجة حرارتها معتدلة والثانية ويطلق عليها بيت الحرارة كانت قاعة لها قبة وبها ثلاثة أو أربع ايوانات (مقصـــورة) والحرارة مرتفعة والجو معبق بالبخار والقاعة الثالثة وهى المغطس .

وكانت النســـوة يزرن الحمام أســـبوعيا ويعتبرن زيارة الحمام نزهة في المناســـبات ويتقابلن مع صـــاحباتهن به ويأكلن ويشربن ويقضين وقت فراغهن .

وكان الحاكم بأمر الله قد منع النســـاء من الخروج فى شوارع القاهرة لمدة سبع سنوات ما عدا القابلات (الدايات) . وشـــكا التجار اليه بأن تجارتهم كســـدت لعدم خروج النســـوة للأسواق فأمر التجار بنقل ســـلعهم من الســـوق الى الدروب وأن يكون التاجر ذراعه طويلة ويعرض البضـــاعة فى مغرفة لها يد ، وتمد المرأة وهى وراء حجاب يدها لتأخذ وتضع النقود فى المغرفة .

وكانت للأسـواق أحكام يطلق عليها أحكام السـوق وكان يطبق فيها الشـريعة حسـب أمور الحسبة . وكان للقـاهرة محتسـب يعينه الخليفة وكان يطلق عليه والى الحسبة وكان مقره عند بوابة المتولى .

ولعب بالقاهرة المحتسـبون دوراً كبيرا لأنهم كانوا يراقبون الأسـعار فى أسـواق مصـر كما يعايرون الموازين والمكايل بها . ويفتشـون على جودة الأصـناف والأسـعار . وكان ولاة الحسـبة يراعون الأمانة فى البيع والشـراء وعدم الخيانة فى الموازين أو الغش فى السـلع وكان المحتسـب تتبعه دار العيار يعاير فيها الموازين والمكاييل ودمغة المشغولات الذهبية .

وكان الهدف من الحسـبة الأمر بالمعروف والنهى المنكر . لكن اصـبح لها دور اجتماعى واقتصـادى بتحقيق القسـط والحق والميزان . وكان يدخل ضـمن اختصـاصها مراعاة تنفيذ أوامر السـلطان . فلقد أمر الحاكم بأمر الله المحتسـب بمنع النسـوة من السـير بالشـوارع ومنع الندابات من السير خلف الجنازات . ومنع أى امرأة من التطلع من الطيقان والشـرفات أو الظهور فوق أسـطح المنازل . كما منع صـانعى الأحذية من صـنع الأخفاف لهن حتى لا يمكنهن من الخروج . ومنع محلات اللهو على الخليج وعند أبواب الشـرفات والبيوت التى تقع عليه .

وكان على كل بائع معايرة موازينه ومكاييله بدار العيـار وضـبطها . وكان للمحتسـب أعوان يراقبون الأسـواق وينفذون الأحكام ويقول المقريزى : ان المحتسـب رتب عريفا على كل صنعة وفى كل سوق يقبل قوله فى كل شىء وله أعوان ينفذون أوامره وأحكامه .

وأيام العصــــر الأيوبى كانت أســــعار السلع بلا تسعيرة عكس العصــــر الفاطمى فكان المحتســــب يحدد الأســــعار . كما كان يراقب الخبز وأســــعاره ووزنه ويحدد حصص الدقيق لكل مخبز حتى لا تحدث أزمة فى الخبز ولا سيما أيام المجاعات . وكان وظيفة المحتســــب يوميا المرور على الأســــواق ومراقبة نظافتها والاجراءات الصحية بها .

ولعب المحتســــبون دورا كبيرا قبل أن تخرب ذممهم فى مراقبة جودة الصــــناعات المصــــرية . ولهذا كانت المصنوعات لها شــــهرتها العالمية وكان أى شىء صــــنع فى مصــــر له شهرته وســــمعته . وكانت البضــــائع تفتش وتراقب قبل تصــــديرها ولا سيما فى العصــــر المملوكى ويوضــــع عليها خاتم الجمارك المصــــرية . وهذا كان كافيا وكفيــــلا بمرورها بأى ميناء بأوربا وتنزل بدون تفتيش للأســــواق هناك .

وكان لكل حرفة نقيب (شيخ) يجيز الصناع الأكفاء ويعطيهم شهادة وكان من يغش يشــــهر به وبمهنته . لهذا كانت الصناعة فى الأسواق لها جودتها ودقة صنعها .



(١٠)

الجـــامع الأزهـــر

يعتبر الجامع الأزهر(١) من أهم معالم القاهرة المعزية . فمنذ نشأته وحتى نهاية العصـــــر الفـــاطمى كان مركز الفكر الشـــيعى الاســـماعيلى الباطنى . وهذا الفكر فرضــــه الفاطميون على كل مســـاجد مصـــر . وكان منبره منصـــة للســـباب فى الصحابة ولاسيما أبى بكر وعمر وعثمان . ومن فوق مئذنته كان يردد الأذان الشـــيعى الذى أســـقط منه (الصـــلاة خير من النوم) واضـــيفت عبارة (حى على خير العمل) . كما اضـــيفت عبارة (اللهم صلى على محمد والحسن والحسين) وكان هذا قد فرضــــه جوهر عند دخوله الفســـطاط . كما منع الأئمة والخطباء من لبس الســـواد شـــعار العباســـيين وفرض عليهم التوشـــح بالبياض شـــعار الفاطميين . كما أمرهم بالدعاء للمعز وآل البيت فى خطبة الجمعة وقطع الدعاء للخليفة العباسى . وجامع الأزهر اليوم يعتبر جامعا للزخارف والعمارة الاســـلامية خلال العصـــور التى المت به . وهذا ما يجعل طرازه نســـيجا معقد البنيان لاختلاف هيئة العقود والأعمدة به ، مما يخل بوحدة النمط المعمارى .

---

(١) انظر (الأزهر فى ألف عام) للمؤلف طبعة مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر .

وكان جوهر الصـــقلى قد وضـــع أساسه بعد ثلاث سنوات من وضع أساس القاهرة وقبل مجيء المعز اليها .. حيث وضع أســـاسه عام ٣٥٩ هـ/٩٧٠ م واقيمت فيه أول صـــلاة جمعة فى رمضـــان ٣٦١ هـ/٢٣ يونيو ٩٧٢ م .

والأزهر حاليا له شـــهرته العالمية بعد الحرمين الشـــريفين والقدس ويعتبر الآن بجـــامعته أكبر مؤســـسة دينية تعليمية فى العالم لأنه يدرس العلوم النقلية والعقلية بعدما كان عند بنائه جامع القاهرة الوليدة وقاصـــرا على تدريس الفقه الشيعى الاسماعيلى طوال العصـــر الفاطمى . حيث حوله صـــلاح الدين الأيوبى الى جامع أهل الســـنة . ومن هذا التاريخ أصبح محافظا على العلوم الدينية واللغة العربية ومتصـــديا لكل بدع ولأى زيف وافد ومؤهلا لكل الفقهاء من شتى أنحاء العالم الاســـلامى وكانوا يدرســـون فيه ويلقون به دروسهم أو يتلقون فيه علومهم .

وبينما كان الأزهر موئلا للشـــيعة والفكر الشـــيعى كان جامع عمرو بالفســـطاط يقوم بالحفاظ على الفكر الســـنى رغم اغراءات ذهب المعز . فأصبح جامع عمرو ســـدا منيعا ضد التيار الفاطمى لأنه كان أكبر مؤسسة دينية سنية فى العالم الاســـلامى منذ انشـــائه .

وكانت العلوم تدرس بجامع عمرو حول أعمدته وكانت لا تتبع منهجية تعليمية لكنها كانت تتســـم بالتلقائية التدريســـية . عكس الجامع الأزهر فعند نشـــأته كانت له مناهج تعليمية تتســـم بالفكر الشـــيعى حيث كان يدرب به الدعاة للمذهب الفاطمى على أيدى كبار الدعاة . وكان ينفق عليهم بســـخاء . وكان ملحقا به مساكن للطلاب من كل مكان حتى من غرب أفريقيا . يلقنون به اصـــول

المذهب الاسماعيلى الشيعى . وكانوا يؤهلون ليكونوا دعاة لهذا المذهب الهرطقى فى آسيا وافريقيا .

وأيام الحاكم بأمر الله أقام له مسجدا جعله يقوم بهذه المهمة حيث عطل صلاة الجمعة بالأزهر وجعلها قاصرة على جامعه وجامعى ابن طولون والفسطاط . وكان الجامع الأزهر أيام الفاطميين يلقى عناية الخلفاء وينفق على شئونه بسخاء . فلقد أقام الحافظ الفاطمى عام ٥٢٤ هـ/١١٣١ م سقيفة للجامع على صف من الأعمدة لتكون مقصورة قرب الباب الغربى للأزهر وأطلق عليها مقصورة فاطمة . وكان أيام الوقود يأتى الأهالى للجامع الذى كان مزينا ليعلنوا ولاءهم للخليفة الفاطمى .

ورغم ذهب المعز الا أن جامع عمرو بالفسطاط كان يغص بالدارسين لعلوم السنة وهذا ما جعل الفكر الشيعى محصورا فى أروقة الأزهر وبين دعاته . لأن المصريين لم يقبلوا الهرطقة الشيعية ولاسيما سب الصحابة ومناحة عاشوراء .

والقاهرة المعزية وجامع الأزهر يعتبران من عمر واحد تقريبا . وكان قضاة القاهرة يتخذونه مقرا لهم يحكمون حسب المذهب الشيعى . ولما دخله المعز لأول مرة بعد وصوله للقاهرة وضع بصحنه توابيت أجداده الذين جلبهم معه لمصر . وصلى عليهم فيه .

ويوجد حاليا بالأزهر جزء من بنائه القديم ولاسيما مقصورته المربعة وأجزاء من الأفاريز الكوفية والأروقة الفارسية . التى شيدت فى العصر الفاطمى . لكنه حاليا يعتبر مجمعا وجامعا للعمارة الاسلامية فى العصور التى عاصرها . والجدران الأصلية للجامع كانت حوائط من الحجر وكانت سميكة جدا لكن الأيام لم تبق عليها .

وكان العزيز بالله قد شـــرع فى بناء جامع الانوار الا ان الحاكم بأمر أكمله وســمى جامع الحاكم . وقد شـــرع فى بنائه عام ٣٨٠ هـ/٩٩٠ م . وانتقلت اليه صلاة الجمعة وابطل اقامتها بالأزهر .

وايام حكم صـــلاح الدين قد أبطل صـــلاة الجمعة بالأزهر وجعلهـــا بجامع الحاكم وكان قد تهدم فى زلزال ١٣٠٣ الا أن السـلطان بيبرس أعاد بناءه وأعاد صـلاة الجمعة بالأزهر وأهمل جامع الحاكم فى العصـــر المملوكى وبقيت نقوشـــه الكوفية ، وظلت أروقته قائمة حتى جددته مؤخرا طائفة البهرة . ويتميز هذا الجامع بمآذنه التى أطلق عليها المباخر . وجامع الأزهر منذ العصر المملوكى أصـــبح جامعة دينية يدرس به المذهب السنى والمذاهب الفقهية الأربعة . وكان الطالب حرا فى اختيار المواد التى يتلقاها . وكلما قضى أطول مدة فى الدراســـــة وحصـــل على اجازات من شـــيوخه . كلما كان مؤهلا لتولى المناصـــب العليا كالقضـــاء أو الافتاء أو التدريس بالأزهر .

وكانت الاجازات الســـنوية طوال شـــــهرى شـــــعبان ورمضان وأســـبوعين بعد العيد وعشـــرين يوما فى عيد الأضحى وشـــهرا فى مولد النبى والســـيد البدوى . وكان الطالب يتوجه الى أهله فى هذه العطلات . وكان عليه حفظ النصـــوص عن ظهر قلب دون مناقشـــتها أو ما كان يمليه عليه شـــيخه من شروحات وتعليقات وحواشى للكتب . وهذه الدراســـة قد تســـتغرق عشر ســـنوات . وقد يعيد دراسة هذه العلوم مرة ثانية على أيدى آخرين ليجيزوه فيها .

وايام الحملة الفرنسية نجد أن رواتها قد وصـــفوا شـــيوخه قائلين : كان الشـــيخ يلقى كل احترام من طلابه . وكانوا يتبعونه

كلما حل . فاذا أتى للمسجد اخذ احدهم مركوبه (حذاءه) منه . وكان لو سار فوق حماره أو بغلته يتمسح به الناس فى سيره احتراما وتبركا . وكانوا يقومون له تبجيلا . وكان لو اشترى شيئا من اللحم أو الخبز أو الزيت وخلافه كان البائع غالبا ما يرفض أخذ الثمن .

وكان العزيز بالله الفاطمى يقدم الدروس الدينية أيام الجمع من شهر رمضان بالأزهر . فكان يخرج من قصره وحوله حاشيته مرتديا عباءة بيضاء وفى مقدمة الموكب حفظة القرآن يرتلونه بخشوع . ولم يكن يؤذن للمصلين بالدخول الا بعد دخول الخليفة ويتخذ مجلسه بجوار المحراب المغطى بالستر والبخور من حوله يعبق الجو . ويصعد الخليفة المنبر ليلقى الخطبة داخل هودج من الستر . ويقوم قاضى القضاة بالدعاء له . ولما تنتهى الخطبة أو الدرس كان يؤم المصلين . ولما يفرغ من الصلاة يعود لقصره وسط دق الطبول والموسيقى وأصوات الأبواق .

وزمن صلاح الدين انقطعت صلاة الجمعة والخطبة من الجامع الأزهر الذى اعتبره سمة للمذهب الشيعى ، وأقامها بجامع الحاكم . وكان الأيوبيون سنة على مذهب الامام الشافعى الذى يقضى بعدم جواز اقامة خطبتين للجمعة فى بلد واحد . فقصر صلاح الدين صلاة الجمعة بالمسجد الحاكم لأنه أوسع من الأزهر . الا أن السلطان بيبرس أعادها به . ويقول المقريزى : أقيمت الجمعة بالجامع الأزهر من القاهرة . وكانت قد بطلت منه .. الى أن سكن الأمير عز الدين أيدمر الحلى بجواره فانتزع (استرد) كثيرا من أوقاف الجامع الأزهر .. وأطلق له من السلطان (بيبرس) جملة من المال وعمر الواهى من أركانه

وجدرانه وبيضه وبلطه ورم سقوفه وفرشه واستجد به مقصورة وعمل فيه منبرا . فتنازع الناس فيه . هل تصح اقامة الجمعة فيه أم لا ؟ فأجاز ذلك جماعة من الفقهاء . ومنعها قاضى القضاة تاج الدين (شافعى) . وصمم على المنع وعمل الأمير الحلى بفتوى من أجاز ذلك . واقام فيه الجمعة . وسأل السلطان أن يحضر فأمتنع عن الحضور ما لم يحضر قاضى القضاة . الا أن السلطان والقاضى لم يحضرا وحضر الصلاة الأمراء والفقهاء . ويقول ابن ظهيرة : وعمل الأمير بدر الدين بيلبك (وزير بيبرس) بالجامع مقصورة ورتب فيها مدرسة وجماعة من الفقهاء على مذهب الامام الشافعى . ورتب محدثا فيه يسمع الحديث النبوى وسبعة لقراءة القرآن . ووقف عليها الأوقاف .

وفى العصر المملوكى العثمانى (البكوات) كان الأزهر قد تراجعت مكانته ومكانة شيوخه لدى العامة بعدما تفشى التصوف وشاع أمر رجال الصوفية الذين أصبح العامة يؤمنون بهم وأباطيلهم بعدما سيطروا على الفكر فى مصر وأخذ رجال الأزهر يحاربونهم دون جدوى .

وأول شيخ للأزهر هو الشيخ عبد الله القرشى وكان السلطان العثمانى سليمان القانونى قد أصدر بتعيينه فرامانا . وكان يتبعه كل اجهزة الأزهر وأوقافه وشيوخه . وكان الطلاب به من الكتاتيب ويتبع نظام الحلقات فى التدريس وكانت مفتوحة لأى مسلم .

وقد قام الأمير عبد الرحمن كتخدا بعدة توسعات بالأزهر ما بين عامى ١٧٤٨ و ١٧٧٦ . فزاد من عدد الأروقة خلف المحراب واقامها فوق خمسين عمودا من الرخام وجدد الواجهة واقام مئذنة وصحنا صغيرا . ويعتبر كتخدا أكبر من عمر الأزهر .

وكان للأزهر فى القرن ١٨ ستة مآذن انهارت احداها عام ١٨٩٦ . وكان يؤذن من فوقها فى وقت واحد مؤذنون عميان حتى لا يكشفوا عورات البيوت المجاورة . وكان يوجد به سبع مزاول لتحديد أوقات الصلاة . وكان فوق الصحن أروقة وكان لكل رواق شيخه ويضم اجناسا مختلفة . فكان الرواق الشامى والرواق المغربى أو الصعيدى أو الشرقاوى وكان بالأروقة مكتبة .

وكان الطلاب يرتدون العمامة والجبة وأيام محمد على كانوا معفيين مع حفظة القرآن من التجنيد . ويصرف لهم الجرايات يوميا من الخبز بالمجان . وكان حول الجامع بالحارات أروقه يخزن فيها الطلاب حاجياتهم .

وأيام مشيخة الشيخ العباسى المهدى أعاد للأزهر أوقافه واستطاع جعل التدريس به عام ١٨٧٢ قاصرا على مدرسين معينين وعلى الطالب أن يتقدم بطلب كل عام لامتحانه أمام لجنة تعينها المشيخة . والخريج يمنح شهادة يوقع عليها الخديوى نفسه . وله حق التدريس بالأزهر .

وبعد الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ لمصر . لم يكن للخديوى توفيق أى سلطة سوى على الأزهر . فقام بعد ترميمات وتجديدات وأيام الخديوى عباس الثانى أعيد بناء الأعمدة والبواكى حول الصحن وأعيد بناء حوائط الأروقة التى تطل على الشارع بالناحية الجنوبية وأكمل الرواق العباسى وأصبح علوه ثلاثة أطباق .

وفى عام ١٩٢١ أصبحت الجراية نقدا وكانت تصرف للطلاب كل ستة شهور وكانت الكتب والمخطوطات مبعثرة بالأروقة . فقرر شيخ الأزهر حفظها بمدرستى اقبغا وطيبرس فى

خزائن وصـــناديق الى ان أقيمت المكتبة بالجامع . عام ١٨٩٧ .
وفى سنة ١٨٨٨ صدر فرمان من الخديوى بتطوير الأزهر وادخال العلوم الحديثة به كالرياضـــيات والحســـاب والهندســـة والجغرافيا وأفتت دار الافتاء باجازة تدريســـها طالما لا تتعارض مع الشـــريعة الا أن هذه العلوم ظلت هامشـــية بالنســـبة للعلوم القرآنية حتى فى هذه المجالات من العلوم الطبيعية . وفى عــام ١٨٩٥ صـــدر فرمان بتشكيل أول مجلس ادارى للأزهر وكان يراســـه شـــيخ الأزهر ويضـــم ممثلين عن المذاهب الأربعة وعن الحكومة . وفى نفس السنة صدر قانون بتنظيم الرواتب والجراية للشـيوخ والطـلاب . وقد أصـــبحت المدارس الدينية فى طنطا ودسوق والاسكندرية ودمياط تابعة للأزهر واشرافه .

وفى سنة ١٨٩٦ صـــدرت لائحة للأزهـــر جعلت الالتحاق بالأزهر فى ســـن ١٥ ســـنة ويكون الطالب حافظا لنصف القرآن ويكون ملما بالقراءة والكتابة واو كان من العميان أعفى من شـــرط القراءة والكتابة الا أنه يكون حافظا لكل القرآن . وبينت اللائحة مواد الدراســـة ومســـتوياتها . وحددت العطـــلات فى شـــهر رمضـــان والأعياد والمولد النبوى وموادى الحســـين والســـيد البدوى . وتكون مدة الدراســـة ٨ سنوات فى كل سنة مقرر يدرســـه الطالب وفى نهاية هذه الســـنوات الثمانية يمتحن أمام لجنة رباعية يراســـها شيخ الأزهر ويعطى بعدها الطلاب الشهادة الأهلية وهذه الشـــهادة كانت تؤهل الخريج للعمل كامام مســـجد والقاء خطبة الجمعة ولو أمضى الخريج أربع ســـنوات أخرى كان يمنح شـــهادة العالمية (تعـــادل الدكتوراة) ويحق لحاملها التدريس بالأزهر أو معاهده أو الالتحاق بالقضاء .

وخلال هذا القرن أجريت عدة اصـــلاحات فى مناهج الأزهر وتطويرها الى ان صـــدر قانون تطوير الأزهر عام ١٩٦١ . وكان قبله التعليم بالأزهر يضـــم التعليم الابتدائى والثانوى والعالى . وكانت الجامعة الأزهرية تضـــم كليات الشـــريعة واصـــول الدين واللغة العربية لكن بعد التطوير اصـــبح جامعة بها كليات مدنية كالطب والصـــيدلة والعلوم والزراعة وغيرها . علاوة على الكليات الدينية الثلاثة وبعد التطوير حلت هيئة كبار العلماء وحل محلها مجمع البحوث الاسلامية . واصبح لجامعة الأزهر مديرا يتبع شيخ الأزهر .

(١١)

العمـــارة المملوكيـــة

يعتبر المماليك بنائى عمائر ســـواء ابان حكمهم لمصـــر أو الشـــام أو فلسطين أو الحجاز . وتعتبر عمارتهم ســـمعة بارزة فى العمارة الاســـلامية واشـــتهرت عمارتهم للمساجد بالقباب .

فنجد الســـلطان الظاهر بيبرس قد أقام بالقاهرة مســـجده ومدرســـة بين القصـــين بجوار المدرسة الصالحية . وأقام الملك منصـــور البيمارستان المنصـــورى عام ٦٨٢ هـ/١٢٨٣ م . وقد بناه فى عشـــرة شهور وأوقف عليه الضياع والأملاك والحدائق . ولما تســـلطن الملك حسام الدين لاجين عمر جامع بن طولون وكان خرابا بغير ســـقف لمدة ١٧٠ عاما . وأقام فوقه مزولة . وكان ينفق على المقاتية من أوقاف للمزولة ليحددوا أوقات الصلاة .

وفى عام ٧١٢ هـ/١٣١٢ م قام الناصـــر محمد بن قلاوون بانشـــاء جامعه عند موردة الحلفاء وعمر ســـــور الميدان الكبير عند موردة الجبس ووسع جامع القلعة وبنى له المئذنة الخضراء . وحفر البركة الناصـــرية بجوار الميدان الكبير بالقلعـــة وكانت تستمد المياه من الخليج الناصـــرى . وبالقلعة أقام القصـــر الأبلق وقصـــــرين خلفه وعمر الايوان الكبير وأقام فوقه قبة كما عمر

حوش القلعة ودور الحريم واقام مجراة لامياه من النيل للقلعة . وحفر الخليج الناصـــرى من ناحية موردة الجبس الى زقاق الكحل وبنى منظرة الدهيشـــة تطل على الحوش الســـلطانى بالقلعة . وقام بعدة تجديدات للأسطبل الســـلطانى ومســـجد راشـــدة والســـيدة نفيســـة والطبلخانات وغيرها مما حدثنا به ابن اياس فى (بدائعه) .

وكان الامير آل ملك نائب الســـلطان شـــهاب الدين بن الناصـــر قلاوون قد بنى جامعه بالحســـينية فوق خـــزانة البنود التى كانت سجنا ومكانه كان يدار فيه القمار والفســـاد . فهدم المكان وبنى مســـجده الا أنـــه ظل مغلقا ومهجورا لا يصـــلى فيه الناس لما تقدم فيه من فساد وسفك للدماء .

وبنظرة شـــاملة لما أقامه ســـلاطين المماليك من عمـــائر بالقاهرة . نجد أنهم اقاموا حوالى ٦٠ مدرسة و ٤٥ جامع ومسجد علاوة على الزوايا والخانقهات وأكثر العمائر ما أقامها الناصـــر ابن قلاوون فى عصـــر المماليك البحرية والســـلطان الأشـــرف قايتباى فى عصـــر المماليك الشراكسة . ويعتبر العصر المملوكى أكبر عصـــر أقيمت فيه عمارة اســـلامية . ومن أشـــهرها المشهد الحســـينى الذى بناه بيبرس وجامعه . ومارســـتان قـــلاوون والمدرســـة الناصـــرية وقصر القلعة وقصـــر بشـــتاك وجوامع الطواشى وشيخو والسلطان شـــعبان والحوش بالقلعة وقايتباى وجقمق وخير بك . ومن الآثار التى مازالت قائمة حتى الآن خانقاه بيبرس والمدرســـة الطيبرســـية وجامع الأمير حسين والمدرســـة الجاولية وجامع قوزان والمدرســـة الاقبغجية وقصـــر بشـــتاك وخانقاه قوان وأم أنوك وجامع كجك وشـــيخو وخانقاهه ومدرسة الســـلطان حســـن ومدارس البيكرية والحجازية وجاى اليوسفى

وايتمش وبرقوق واينال وجمال الدين ومارســـتان المؤيد وغيرها من الوكالات كوكالة الغورى وقيتباى والجوامع والمســـاجد التى مازالت قائمة أو مازال اجزاء منها حتى الآن .

وكان الســـلطان الناصـــر حسن قد بنى مدرســـته فى ســـوق الخيل تجاه القلعة وبها مســـجده وتضم أربع مدارس لكل منها شـــيخ مذهب وكان فى صحنه فسقية .

أما الســـــلطان الناصـــر فرج فقد اقام مدرســـة الدهيشة تجاه باب زويلة . وعمر جامع الصـــالح قربه . وبعده أقام الملك المؤيد جامعه داخل الباب وكان مكانه ســـجن يســـمى خزانة شـــمايل أحد أبطال الحرب فى دمياط أيام الملك الكامل قبل حملة لويس التاســـع . وكان المؤيد قد حبســـــه السلطان فرج فى ذلك الســـجن . الا أنه اخذ باب مدرسة الســـلطان حسن والتنور الكبير وجعلهما فى جامعه الذى به فســـــقية ماء . وأثناء بناء الجامع مالت احدى المئذنتين فأعيد بناؤهما .

وأثناء حكم الســـلطان الاشرف برسباى عام ٨٢٥ هـ/١٤٢٢م بنى مدرســـته عند ســـوق الوراقين وبنى له خانقاه عبارة عن مدرســـة وضـــريح له وكان فى الصـــــحراء وقتها ومازال هذا الجامع والخانقاه موجودين . وحكم مصـــر الســـلطان الأشـــرف قايتباى عام ٨٦٥ هـ/١٤٦١ م . وقد بنى فى عهده جامعا تمراز وأزبك بشـــتك ووكالة قايتباى ومدارس قايتباى والروضة وأزبك وابن مزهر ومازالت هذه الآثار قائمة حتى الآن . وأقام جامعه الذى به قبره والســـبيل قرب تحت الربع وغيره من الأسبلة والزوايا والربوع والحوانيت التى أوقفت على مســـجد الرســـول . كما جدد القلعة فأقام المقعد بالحوش والايوان الناصرى .

وفى عام ١٥٠٤ أقام الغورى قناة تسمى المجراة الجديدة عند موردة الخلفاء على النيل وجعل لها بئرا بجواره تتسرب اليه الماء وبنى فوقه سواقى ترفع المياه الى مجراة فوق قناطر معقودة على دعائم (أعمدة) تصل الى باب الزغلة وتتصل بالميدان والقلعة . ودارت الدواليب ووصل الماء للميدان عند القلعة ثم صنع سواقى ترفع الماء لأعلى لتملأ ثلاثة صهاريج تمد البستان الذى شيد فى الميدان بالماء وكان به بركة صغيرة وسطه . وكان هذا البستان به مقاعد رخامية للتنزه واقامة الحفلات والمآدب . والغورى كان مهتما ببناء المخازن والمحلات لازدهار التجارة فى عهده فأقام وكالته الشهيرة وأقام بالجامع الأزهر مئذنة براسين مازالت حتى اليوم وأقام عدة ربوع بخان الخليلى الذى جدده ووسعه وبنى ربعين عند الصورين وطاحونة عند المصبغة . وغيرها من المنشآت والتجديدات .

وبعد زوال دولة المماليك انتهى عصر العمارة بعد مجىء العثمانيين لمصر ١٥١٨ واخذ السلطان سليم معه خيرة الصناع والبنائين ليبنوا له عاصمته الأستانة (استانبول) ولم تشهد القاهرة عمارة متميزة كالعمارة المملوكية .

(١٢)

الأوبئـــة والمجـــاعات

كان اكثر المؤثرات على مصـــر ولاسيما القاهرة والفسطاط فى العصـــور الوســـطى الأوبئة والمجاعات . وكان يطلق عليها الشـــدائد والغلوات . فلقد كان الطاعون يحصـــد كل موســـم وباؤه الآلاف حيث كانت الأرض لا تجد من يزرعها فتنتج المجاعات الضـــاربة . وكانت كل شـــدة تنســـب الى السلطان كشـــدة المســـتنصرية وكان المؤرخون يطلقون على وباء الطاعون الفناء الكبير . فنجد أن فى العصـــر المملوكى خلال ٣٠٠ سنة اجتاح مصر ٦٤ وباء ومجاعة قد ســـجلها المؤرخون فى كتاباتهم .

وكان من أهم أسباب المجاعات بالقاهرة قصـــور النيل عند الفيضـــان ولم يكن هناك مشروعات منظمة للمحافظة على مياه النيل وتخزينها كما فى السد العالى وخزان أســـــوان والقناطر الخيرية .

والمقريزى فى تصـــــوير لهذه الشـــدائد كان يطلق عليها الغمة . وهذه الشـــدائد الكبرى قد صـــورها المقريزى فى كتابه (اغاثة الامة بكشـــف الغمة) حيث قال : كان أول غلاء وقع فى

مصر كان أيام خـلافة عبد الملك بن مروان . ثم وقع غلاء فى الدولة الاخشيدية فثارت الرعية . ثم وقع غلاء سنة ٣٤١ هـ فكثر الفقر فى أعمال مصر .. ثم قصر النيل ثم وقع الغلاء فى الدولة الاخشيدية أيضا واستمر تسع سنين متتابعة وابتداء فى سنة ٣٥٢ هـ . وكان سبب الغلاء أن ماء النيل انتهت زيادته الى ١٥ ذراعا وأربعة أصابع . وعز الخبز فلم يوجد وزاد الغلاء . وقصر مد النيل فى سنة ٣٥٣ هـ فلم يبلغ سوى ١٥ ذراعا وبضعة أصابع . واضطرب فزاد مرة ونقص أخرى حتى صار فى النصف من شهر بابة الى قريب من ١٦ ذراعا ثم زاد قليلا وانحط سريعا . فعظم الغلاء . ويقول بأن الأعمال انتقصت ونهبت لاضياع وماج الناس ودخلوا الجامع العتيق بالفسطاط فى يوم الجمعة ولم تصل الجمعة يومئذ .

وبعض هذه الغلوات قد يكون بسبب الفتن او احتكار القمح . فأيام الحاكم بأمر الله تعذر وجود الخبز فى الأسواق . فأقسم بأنه ماض الى جامع راشدة ليصلى العصر وعند عودته لو وجد موضعا يطئه حماره مكشوفا من الغلة ليضربن رقبة كل من عنده شيئا منها . ويقول ابن اياس : فما بقى أحد من أهل مصر عنده غلة حتى حملها من بيته أو منزله وشونها فى الطرقات . وبلغت أجرة الحمار فى حمل النقلة الواحدة دينارا . فأمتلأت عيون الناس وشبعت نفوسهم .

وفى شدة سنة ٦٩٥ هـ/١٢٩٥ م نجد ابن اياس قد صورها بقوله : اجدبت البلاد وشح النيل .. اشتد الأمر على الناس حتى اكلوا الكلاب والحمير والبغال والخيل والجمال .. ولم يبق عند أحد شىء من الدواب . حتى صار يباع الكلب السمين بخمسة دراهم والقطة بثلاثة دراهم .

ويقول ابن اياس : فلما طال الأمر على الناس أرســـل الله اليهم جرادا كثيرا فأكل الناس منه شيئا كثيرا حتى قيل كان يباع منه كل أربعة أرطال بدر همين .

ويقول : اعقب هذا فناء عظيم حتى صار الناس يتساقطون موتى فى الطرقات .

ويصــف الجبرتى مجاعة عام ١١٠٧ هـ / ١٦٩٥ م قائلا : اجتمع الفقراء والشـــحاذون رجالا ونســـاء وصـــبيانا وطلعوا الى القلعة ووقفوا بحوش الديوان وصــــاحوا من الجموع فلم يجبهم أحد فرجموا بالأحجار . فركب الوالى (العثمانى) وطردهم . فنزلوا الى الرميلة ونهبوا حواصـــل الغلة التى بها وكالة القمح وحاصـــل كتخدا باشا وكان ملآنا بالشـــعير والفول .

ويقول الجبرتى : حضـــر أهالى القرى والأرياف حتى أكل الناس الجيف ومات الكثير من الجوع . وخطف الفقراء الخبز من الأســـواق ومن الأفران ومن على رؤوس الخبـــازين . ويذهب الرجلان والثلاثة مع طبق الخبز يحرسونه من الخطف وبأيديهم العصى حتى يخبزوه بالفرن ثم يعودوا به .

ووصف المقريزى الشـــدة المستنصرية وأوعزها الى الفتن واســـتيلاء الأمراء على الدولة وقصـــور النيل عام ٤٥٧ هـ / ١٠٦٤ م فقال : فنزع الســـعر وتزايد الغلاء وأعقبه الوباء .. وتزايد الحال حتى أكل الناس بعضـــهم بعضا . فكانت طوائف تجلس بأعلى بيوتها ومعهم ســـلب وحبال فيها كلاليب . فاذا مر بهم أحد القوها عليه ونشـــلوه فى أســـرع وقت وشرحوا لحمه وأكلوه . ثم آل الى أن باع المستنصر (الفاطمى) كل ما فى قصره من ذخائر وثياب وأثاث وســـلاح وغيره . وصـــار يجلس على

حصير وتعطلت دواوينه وذهب وقاره ، وكان نساء العصور تخرجن ناشرات شعورهن تصحن الجوع . الجوع . فتسقطن عند المصلى وتمتن جوعا واحتاج المستنصر حتى باع حلية قبور آبائه .

ويقول عبد الله بن عبد الحكم عن هذه الشدة ان امرأة من ذوى البيوتات أخذت عقدا من الجواهر قيمته ألف دينار فعرضته على جماعة من الناس فى أن يعطوها عوضه دقيقا . فأخذته فى تليس وخرجت به من مدينة الفسطاط تريد القاهرة . فلما وصلت باب زويلة تكاثرت عليها الناس فانتهبوا ما كان معها من الدقيق . فأخذت بجملة الناس ملء يديها دقيقا . فلما وصلت به الى بيتها عجنته رغيفا وخبزته فلما خرج من الفرن اخذته على جريدة وتوجهت الى قصر الزمرد ووقفت تحته ونادت بأعلى صوتها . ورفعت الرغيف وقالت : يا أهل القاهرة . ادعوا بالنصر لأمير المؤمنين المستنصر بالله الذى أكلنا الرغيف فى أيامه بألف دينار . المهم سمعها المستنصر وأحضر وزيره وحاجبه وهددهما بالشنق على باب زويلة اذا لم يظهر الخبز فى الأسواق فكبسا على البيوت والحارات حتى ظهر الخبز بالأسواق وكثر بالدكاكين .

وكان هذا الغلاء فى كثير من الأحيان مفتعلا من تجار الحبوب والخبازين والطحانين ، بدليل عندما كانت السلطات تهددهم وتجبرهم كانت الغلال تظهر وترخص . ولاسيما لو علموا أن النيل شحيح فى فيضانه . لهذا بعض السلاطين كانوا يكلفون عمال المقياس بألا يخبروا سواهم عن منسوبه حتى لا تنشر الشائعات وتقل الغلال بالأسواق ، وكثير من سلاطين دولة المماليك الشراكسة والأمراء كانوا يخزنون

الغـــلال ويســــتولون عليها من الأســــواق عنوة ليبيعوها بأسعار فلكية ولاسيــما أيام القحط والســـنين العجاف . وكان يتم هذا عادة لو قل منســـوب الفيضـــان عن ٥ أذرع لأن هذا معنــــاه أن البلاد ستمر بحالة قحط . عكس دولة المماليك البحرية فعندما كانت البلاد تواجه قحطا فى الغــــلال كان الســــلاطين يأمرون باخراج الغلال من الشـــون الســــلطانية كحصـــص يومية للطحـــاحين والخبازين . وكانت الغـــلال تباع للفقـــراء والأرامل مع تحديد حصص كل فرد منها . وكان المحتســـب يراقب المطاحن والمخابز ويحدد أســـعار الخبز .

وأيام الملك الأشــــرف شــــعبان عام ٧٧٥ هـ/١٣٧٤ م . توقف النيل عن الوفاء (أكثر من ١٥ ذراعا) ونقص أصـــبعين . فضـــج الناس .. ويقول ابن اياس : فرســـم الســـلطان للناس بأن يخرجوا ليستسقوا .. خرج الناس قاطبة الى الصـــحراء واجتمع هناك الجم الغفير من العلماء والصلحاء والفقراء والرجال والنســـاء والأطفال وطائفة اليهود والنصـــــارى . وحضـــــر الخليفة (العباسى) والقضـــاة الأربعة ولم يزل الســلطان معهم ثم توجهوا من وراء القبة ونصـــبوا هناك منبرا وصــــعد اليه قاضى القضـــاء الشـــافعى وخطب خطبة بليغة فى الاستسقاء . ولما حول رداءه كشـــف عن رأســـه ودعا الله تعالى .

ويقول ابن اياس : فلما اشـــتد الأمر وشــــــرقت البلاد (جفت) رســـم الســـلطان بأن يجمع الحرافيش الذين فى القاهرة ويفرقون على الأمراء وأعيان التجار . ويعطون لكل فقير رغيفين وما شـــاكل ذلك من الطعام .. وظل الأمر سنة حتى صـــــار الناس يأكلون خبز الفول وخبز النخال والذرة . وأيام الســـلطان العــادل حـدث غـلاء ســـببه نقص النيل وزباء الطاعون فى سنة

٥٩٦ هـ/١٢٠٠ م . وكانت سنة توليه السـلطنه . وعدم القوت حتى أكل الناس صـغار بنى آدم من الجوع (الاطفال) . فكان الأب يأكل ابنه مشـويا أو مطبوخا . والمرأة تأكل ولدها .. فكان يوجد بين ثياب الرجل أو المرأة كتف صـغير أو فخذه أو شىء من لحمه . ويدخل احدهم على جاره فيجد القدر على النار فينتظرها حتى تتهيأ . فاذا هى لحم طفل .

وأيام السـلطان العادل كتبغا عام ٦٩٤ هـ/١٢٩٥ م . قضى الوباء على معظم سـكان مصـر والقاهرة . وغالى العطارون فى اثمان الأدوية وغنوا غناء فاحشـا وغالى الأطباء فى أسعارهم لكثرة الأموات ومن كثرتهم كانوا يدفنون فى حفر كمقابر جماعية ويقول المقريزى : وجافت الطرق والأسـواق من الموتى . وكثر اكل لحوم بنى آدم وخصـوصا الأطفال . فكان يوجد الميت وعند راسـه لحم الآدمى ويمسـك بعضـهم فيوجد معه كتف صغير أو فخذه أو شىء من لحمه .

وروى ابن اياس عن وباء ٨٠٧ هـ/١٤٠٥ م . وكان اشـبه بالانفلونزا ومات كثير من الناس بالطرقات وفتح مغسـل برسـم الأموات عند جامع بشـتك . فكانوا يأتون اليه بالأموات على عتالين يطرحونهم على بابه حتى يغسـلوا ويكفنوا . وعددهم لا يحصى . وفى عام ٨٣٣ هـ/١٤٢٩ م وقع وباء الطاعون فى فصل الشـتاء على غير عادة الطواعين التى موسـمها بالربيع . وكانت وكانت قوة عمله كما يقول ابن اياس فى الغرباء والأطفال والمماليك والعبيد والجوارى . حتى قيل من مات فى يوم واحـد أربعـة وعشرون الف جنازة حتى ضج الناس من ذلك وصار يودع بعضهم بعضـا .

وفى عام ١٢٠٥ هـ/١٧٩١ م كان وباء الطـــاعون ويقول الجبرتى : ومات به مالا يحصى من الأطفال والشـــبان والجوارى والعبيد والمماليك والأجناد والكشـــاف والأمراء .. وعســـكر القليونجية والأرناؤد الكائنون ببولاق ومصـــر القديمة والجيزة . وكان يخرج من بيت الأمير فى المشـــهد الواحد الخمســـة والستة والعشـــرة . وازدحموا على الحوانيت فى طلب العدد والمغسلين والحمالين ويقف فى انتظار المغســـل أو المغســـلة الخمســـة والعشـــرة يتضاربون على ذلك . ولم يبق للناس شـــغل الا الموت وأســـبابه . فلا نجد الا مريضـــا أو ميتا أو عائدا أو معزيا أو مشـــيعا فى تجهيز ميت أو باكيا على نفســـه موهوما . ولا تبطل صـــلاة الجنائز من المســـاجد والمصليات ولا يصلى الا على أربعة أو خمسة أو ثلاثة .

هذه صورة الأوبئة والمجاعات التى كانت تداهم ســـكان القاهرة بلا تعليق .

(١٣)

فــــلوس مصــــر

كان أيام الخليفة عبد الملك بن مروان تســـك الدنانير العربية فى دار سك النقود فى الفســـطاط ودمشق . وكان وزن الدينار ٤٫٢٥ جرام وعليه اسم الوالى أو عامل الخراج الذى ضـــرب النقد فى عهده وعليه اســـم الخليفة وصـــورته . وكانت النقود البرونزية تســـك بالفسطاط وعليها تاريخ الضـــرب الهجرى . وظلت النقود تســـك بمصـــر بهيئتها الأموية حتى ابان الخلافة العباســـية وحتى عهد هارون الرشـــيد . وظلت تكتب بصيغها الاسلامية وعليها اسم الوالى العباسى .

وأيام أحمد بن طولون كانت النقود تسك باســـمه وكان عليها اســـم الخليفة العباسى ولاسيما الدنانير الأحمدية . وكانت من أنقى أنواع الذهب التى كان يتاجر فيها الصـــاغة . ولما استردت الخلافة العباســـية مصـــر من الطولونيين الغيت الدنانير الطولونية وضـــربت الدنانير العباســـية ولم يكتب عليها اســـم الولاة حتى تولى الاخشـــيد وضـــرب الدنانير باسمه بعد ٣٠ سنة من الغاء الدنانير الأحمدية .

ولما أتى المعز لدين الله مصـــر أحضر معه سبائك الدنانير المغربية بعدما صـــهرها وصـــبها فى شـــكل احجار الطواحين وكانت الســـبائك القرصـــية مفرغة فى وســـطها . وكان كل جمل يحمل حجرين من هذه الســـبائك الذهبية . ثم أعاد ضـــربها بدار الســـك بالفســـطاط . فضربت الدنانير المنصورية والمغربية وكانت تحمل اســـم المعز وعليها كتابات شيعية ولاسيما عبارة (على أفضل الوصـــيين ووزير خير المرســـلين) . ووصل عيار الذهب فى هذه الدنانير ٥ر٢٣ قيراط وهو عيار دنانير ابن طولون . لكن عيار الخليفة العباسى الراضى ظل متداولا بمصـــر لأنه أنقى وأصـــقل . الا أن المعز غمر الأســـواق بديناره وخفض سعره . ومنع تداول الدينار العباسى وأمر بعدم التعامل الا بديناره فباع المصـــريون دينار الراضى بأبخس الأســـعار وكانت الدولة تشـــتريه وتكســـب فى فرق الوزن .. فأصبحت النقود وسيلة ضـــغط اقتصـــادى على تجار الفسطاط . واخترع الفاطميون العملات الذهبية التذكارية ويطلق عليها الخراريب . وكانت توزع فى الأعياد والمناســـبات على رجال الدولة والأمراء والحاشـــية ولا ســـيما النقود التى كانت توزع فى غرة السنة الهجرية .

وأول ذكر للدراهم بمصـــر كان أيام الحاكم بأمر الله الفاطمى ويقول الأمير عز الملك المســـجى بانه فى ٣٥٧ هـ تزايد أمر الدراهم القطع المتزايدة فبيعت ٣٤ درهما بدينار .. فرفعت الدراهم وأنزل بعشـــرين صـــندوقا من بيت المال فيها دراهم جدد .. ففرقت فى الصـــيارف وقرىء ســـجل برفعها (ابطالها) والا يتعامل بها . فبلغت أربعة دراهم بدرهم من الجدد .

وكانت الفضـــة تضـــرب بمصـــر نقودا وكان يطلق على الدراهم الفضـــة المســـودة أو نقود مصـــر وكان المصـــريون يطلقون عليها أيضا الورق ولم يكن يتعاملون الا بها . والدرهم

النحاس به قليل من الفضـــة وكان هذا الدرهم متداولا حتى مجيء الأيوبيين . واطلق على هذه الدراهم الدراهم العتق أو الدراهم المســـودة .

ومع بداية الســـلطنة الأيوبية قل الذهب والفضـــــة من مصـــر . لأن ظروف الحروب الصليبية وقتها كبدت البلاد نفقات كبيرة كما أن التنقيب عن الذهب فى صـــحراء وادى العـــلاقى الشـــرقية قد توقف . كما أن حركة تصـــدير البضائع من مصـــر كانت شـــبه متوقفة ولاسيما فى عهد الدولة الفاطمية التى احتكرت صـــناعة النســـيج مما جعل بغداد تقاطع المنســـوجات الفاطمية. وفى الســـلطنة الأيوبية مع اســـتمرارية الحرب التحـــريرية مع الصليبيين استنفدت مخزون مصر من الذهب لانهم كانوا يهربونه الى اوربا . وتنبهت الســـلطات الأيوبية لهذا . فأخذت تخزن الدنانير الذهبية وطرحت الدراهم الفضـــية . فدرهم صـــلاح الدين كان نصـــفه فضـــة ونحـــاس لهذا اطلق عليه الورق أو الزيوف . وظلت هذه الدراهم ســـائدة حتى تولى الســـلطان الكامل الأيوبى وأمر بضـــرب دراهم مستديرة لأن الدرهم الزيوف قيمتها المعدنية أقل من قيمتها فى الأســـواق . وظل الســـلاطين الأيوبيون يخشـــون التوقف عن التعامل فيها لأنها لو ســـحبت من الأســـواق ســـوف تســـحب بقيمتها الأسمية وليست حسب قيمتها المعدنية . الا أن الســـلطان الكامل أخذ قرار جريئا وحاسما بايقافها ونزعها من الأيدى ومن الصـــيارف وطـــرحت الدراهم الكاملية الفضـــية ثلثها نحاس والثلثان فضـــة . وهذا رفع من القيمة المعدنية للعملة مما جعلها تروج فى مصـــــر والشـــــام الأيوبية ، واصـــبح التعامل بها قد طغى على الدنانير الذهبية . وظلت الدراهم الكاملية ســـائدة حتى فى عصـــر المماليك لأن

التعامل بها كان على نطاق واسع . وكان الدرهم وزنه ١٨ خروبة والخروبة ثلاث قمحات (١٩٤ر.) جرام والمثقال ٢٤ خروبة .

وكان يوجد نوع ثالث غير الدينار والدرهم الا وهو الفلوس وكانت من النحاس وأطلق عليها المحقرات . وكان قد ضـــرب منها كميات قليلة . وأول من صـــنعها الســـلطان الكامل الأيوبى كما يقول المقريزى فى (الاغاثة) : وكان ســـبب ضـــربها .. أن امرأة تعرضـــت لخطيب الجامع بمصـــر .. تســـتفتيه .. قائلة : أيحل شـــرب الماء أم لا ؟ فقال : يا أمة الله ، وما يمنع عن شـــرب الماء ؟ . فقالت : ان الســـلطان ضـــرب هذه الدراهم (الكاملية) . وانى اشـــترى القربة بنصـــف درهم (زيوف) ومعى درهم (كاملى) . فيرد الســـقاء على نصـــف درهم ورقا . فكأنى اشـــتريت منه ماء ونصـــف درهم (ورق) بدرهم (كاملى) . فأنكر الخطيب أبو الطاهر المحلى ذلك واجتمع بالســـلطان . فأمر بضـــرب الفلوس كنوع من الفكة فى التعـــامل . وكان الدرهم الكاملى يســـاوى ٤٨ فلســـا والفلوس كانت مقسمة اربع قطع . وأيام ســـلطنة العادل كتبغا ضـــربت الفلوس وتوقف الناس عن التعامل بها فعرضـــها فنودى فى سنة ٦٩٥ هـ/١٢٩٥ م بالأسواق أن توزن الفلوس بالميزان . وكان هذا أول تعامل فى النقد بمصـــر بالوزن . لهذا كان كل تاجر يقبض العملة ولديه ميزان يوزنها ولم يكن التعامل بها عدا .

وأيام الســـلطان برقوق جلب النحاس الأحمر من بلاد الفرنجة وأخذ دارا الضـــرب بالقاهرة والاسكندرية يضـــربان الفلوس فكثرت فى أيدى الناس وراجت حتى اصـــبحت غالبية النقد فى مصـــر . وقلت الدراهم لعدم ضـــربها وســـبك الموجـــود منها لصـــنع الحلى الفضـــة للنســـوة . وكثر الذهب لأن الســـلطان

برقوق كان ينعم به كميات على امرائه . وفى عهده كثر وجود الذهب حتى كان مع السوقة كما يقول المقريزى .

من هنا نجد العملة كانت الدنانير الذهبية والدراهم الفضية والدراهم النحاسية التى كان يطلق عليها الفلوس . وكان يطلق على الدراهم الفضية الدراهم النقرة .

وأيام الملك المنصور ابو السعادات عام ٨٦١ هـ/١٤٥٦ م . عقد السلطان مجلسه الذى حضره القضاة الأربعة ومشايخ العلم . واثير فيه مسألة غش الفضة فى العملة . واحضرت – كما يقول ابن اياس – نقود الدول القديمة من أيام المؤيد (سلطان) الى دولة الظاهرة جمقق . فسكت فلم يوجد أكثر غشا وفسادا من ضرب فضة الأشرف اينال . فأمر السلطان بأشهار المناداة فى القاهرة بابطال المعاملات (العملة) الحلبية والدمشقية . فاضطربت الأحوال . فنودى بالقاهرة بأن كل شىء على حاله فى المعاملة الحلبية وغيرها .

وبعد عامين ضرب السلطان فضة جديدة وأبطل سائر المعاملات من تلك الفضة المغشوشة التى وصل الدينار منها الى اربعمائة وستين درهما . فخسر الناس ثلث أموالهم . الا أن المعاملة صلح أحوالها بعد القبض على الزغلية (الغشاشين) وقطعت ايديهم . وبهذا صاحت العملة حتى عهد السلطان الغورى .

وكان للذهب أهميته فى المعاملات التجارية ولهذا تعرضت العملة الذهبية للتلاعب فى الوزن والعيار أيام العصر المملوكى . فنجد السلطان الأشرف برسباى قد تعمد انقاص وزن العملة الذهبية والفضية والنحاسية وطرحها بسعرها الأسمى الذى

أعلى من قيمة أوزانها واستبعد العملات الأجنبية من الأسـواق وجمعها بالثمن المخفض فلحق الخراب التجار ولاسيما وانه كان قد احتكر كل التجارة والبضائع المستوردة والمحلية . وظل الدينار الأشـرفى (نسبة لبرسباى) متداولا فى مصر ووزنه ٣٫٤٧ جرام حتى نهاية عصـر الغورى وطومانباى آخر سلاطين المماليك أى حتى عام ١٥١٧ م .

وفى عصـر السـلطان قلاوون ظهرت الدوكات البندقى والافرنتى وكان التجار يطلقون عليها الدنانير المشخصة لأن عليها صـور القديسين وصـورة دوق البندقية لهذا أطلق عليها الدوكات (الدوقات) وكثر تداول الدوكات ولا سـيما فى جمارك مصـر ولاسيما فى القرن ١٣ . كما سـادت الفلورينات (عملة فلورنسا) وكان (الدوك) مطلوبا فى أسـواق مصـر والشـام واليمن لدقة اسـتدارته ووزنه ٣٫٤٥ جرام وعياره مرتفع عكس الدنانير المملوكية كانت وقتها رديئة الصـنع وبلا عيار أو وزن ثابت أو سمك محدد . لهذا كان التعـامل فى الدوكات بالعد والدنانير بالوزن . ولم تقو الدنانير المملوكية على منافسـة الدوكات رغم محاولات تحسـين وزنها وعيارها . لكن مما زاد الحال سـوءا غمر الأسـواق بدنانير مملوكية زائفة وكان يطلق عليها دنانير زغلية . لكن السـلطان برسـباى للقضاء على عمليات التزييف طلب من البنادقة الأشـراف على سـك عملتهم فى مصـر بدار السـك السـلطانية . وبهذا قام بتمصـير الدوكات . ومنع اسـتعمال الدوكات المشخصة وطرحت عملة من الدينار الأشرفى الذى صـنعه البنادقة وكان يطلق عليه الدينار البندقى . ولتشجيع البنادقة على سـكه خفض برسباى الضـرائب من ١٠٪ الى ٢٪ على سـبائك الذهب بعدما كان يدفع على الدوكات ١٠٪ .

وأيام السلطان الغورى كان النشاط التجارى العالمى سائدا فى مصر حتى عام ١٤٩٨ عندما سيطرت البرتغال على التجارة الشرق أقصبة فى الهند والصين . الا أنه أتبع أسلوب الغش فى النقود الذهبية والفضية والنحاسية . وسحب كل العملات الذهبية القديمة وصهرها . وكان صناع النقود بدار الضرب يغشون الذهب والفضة بالنحاس والرصاص جهارا أو كما يقول ابن اياس : اتلف المعاملة . وأيام الحكم العثمانى لمصر كانت قوالب سك النقود تصنع فى الاستانة لصنع النقود المصرية وكانت ترسل لدار الضرب التى أصبحت بالقلعة . وكانت النقود العثمانية قد خلت من الكتابات الاسلامية كآيات القرآن أو الشهادة أو التوحيد . وكتب عليها أسماء السلاطين العثمانيين والقاب التشريف لهم . وفى سنة ٩٢٦ هـ/١٥٢٠ م أى بعد دخول العثمانيين مصر بعامين عم الغلاء البلاد وغش العملات الذهبية والفضية ونهب الاتابك العثمانيون الأسواق والحوانيت . وكانت الأسواق تتاجر وتبيع بالنقد من الذهب والفضة . الا ان الوالى العثمانى قد ضرب فضة مغشوشة وكان قد نادى فى أسواق القاهرة بأن من يرد معاملة (نقود الفضة) يعدم . فنزلت الانكشارية من القلعة ومعها صناديق الفضة المغشوشة بالنحاس وكانوا يرمون الأكياس للتجار طالبين دنانير ذهبا بدلا منها . فلو رفض نهبوا دكانه وضربوه . وكانوا يبدلون كل أشرفين فضة نحاسية بأشرفين ذهب (دينار) . وأغلقت الأسواق لأن الصيارفة كانوا يبدلون الدينار بأكثر من اشرفين . وأمر الوالى العثمانى التشهير بهم فى الأسواق وخرم أنوف بعض التجار وعلق الموازين فيها وشنق من بينهم أحد الصيارف على بوابة المتولى .

وأيام حكم العثمانيين لمصر كانت السيطرة للمماليك البكوات . ولما استقل على بك الكبير عام ١١٨٣ هـ/١٧٦٩ م بمصر وكان شيخا للبلد ضرب نقودا فضية أطلق عليها القروش العشرينية (٢٠ بارة) وجعل على وجهها الطغراء (اسم ولقب السلطان) وعلى الوجه الآخر اسمه . ولما قضى على حكمه ابطلت هذه القروش وقل سعرها لأن الوالى العثمانى أعاد سبكها . فجمعت من الأسواق بأقل من قيمة وزنها وسعرها الأسمى وخسر الناس كثيرا وربح الوالى فى هذه العملية هو وبقية المماليك الخوارج على على بك الكبير ٠ الا أن نابليون لما جاء بمصر ١٧٩٨ أعاد ضرب هذه القروش وراجت فى أيامه . وكانت تضرب بالضربخانة المصرية .

(١٤)

الأعيـــاد والاحتفـــالات

تعتبر الأعياد أحد الصـــور الاجتماعية من حياة القاهرة — من بينها الاحتفالية برؤية الهلال ودوران المحمل . فلقد كان قاضى الولاية منذ أواخر العصـــر الأموى يخرج لرؤية هلال رمضـــان وكان يصـــحبه بقية القضـــاة فى الفســـطاط . وكانوا يتوجهون الى جامع محمود بالمقطع للرؤية حيث كانوا يجلســـون على دكة القضـــاة فوق الجبل ليروا فى ســـماء الفســـطاط الهلال .. وظلت هذه العادة ســـائدة حتى بنى الفاطميون مســـجدا به مئذنة مكان دكة القاضى ليرى الشهور والهلال من فوقها .

وكان الفاطميون يهتمون بالاحتفال برؤية هلال رمضـــان . وكان القضـــاة مهمتهم المرور قبل الاحتفال بثلاثة أيام على مســـاجد القاهرة والفســـطاط للتأكد من تعميرها واضاءتها وتعليق التناديل وفرشـــها بالحصـــر .

وكان الخليفة يخرج من باب الذهب بالقصـــر الكبير بالقاهرة وحوله موكبه من الأمراء والقواد وفى أيديهم الأســـلحة المذهبة والمفضضة حاملين الأعـــلام الملونة وأمامهم الموســـيقى . وكان ينضـــم الى هذا الاحتفال بالرؤية التجار والحرفيون بعدما يزينون

دكاكينهم ولاسيما الطريق الذى سيمر به موكب الخليفة الفاطمى حيث يسير فى ساحة بين القصرين الى أن يصل الى باب الفتوح بسور القاهرة ثم يدور الى باب النصر ليتجه ثانية الى باب الذهب بالقصر حيث تنتظره التشريفة امامه . وكان يسبق الموكب المرتلون للقرآن . ثم يدخل الخليفة القصر ويغير ملابسه . ثم يوزع الدنانير الذهبية . وبعدها يصدر سجل البشارة بحلول الشهر المبارك . ثم تقدم الهدايا من الحلوى فى أطباق بها صرة من الذهب الغره فى أول أيام رمضان . ثم تقام موائد الافطار من رابع يوم رمضان حتى السادس والعشرين فى قصر الذهب وكان يؤم المائدة وزير الخليفة أو أحد الأمراء . ثم يوزع القصر الطعام على الفقراء يوميا وبسخاء وكان يطبخ المطبخ بالقصر .

وكان الخليفة الفاطمى يقيم موائد الافطار يوميا فى جامع عمرو بالفسطاط والجامع الأزهر بالقاهرة . وكان يتلى القرآن وتقام الأذكار ويلقى دروس الوعظ كل ليلة بشرفة القصر . وتوزع الحلوى والعطاء على الحاضرين ليأخذوا معهم .

وكان الثلاث جمع من رمضان يتوجه فيها الخليفة للجامع الأزهر ليؤم المصلين وكان يخرج فى موكبه . وفى كل جمعة يتيمة كان يتوجه الى جامع عمرو بالفسطاط ليصليها هناك . ولما بنى الحاكم بأمر الله جامعه كان يصلى جمع رمضان به . وكان فى كل يوم جمعة يفرش المسجد بالسجاد وتعلق ستارتان على جانبى المحراب عليهما قصار السور ليقراها الخليفة اثناء امامته للصلاة . وكان مهمة قاضى القضاة تبخير المحراب والمنبر قبل أن يصل الخليفة للجامع . وكان يتجه اليه فى موكب ضخم يسبقه جوقة من المرتلين للقرآن الى أن يصلوا لباب

الجامع فينزل عن فرســـه ويدخل ليســـتريح بالمقصورة الخاصة . واذا حان اذان الصــلاة . دخل قاضى القضـــاة ودعا الخليفة للصـــعود على المنبر وحوله الوزير والحرس والحاشـــية ، فلما يصـــعد المنبر يجلس تحت قبته ثم يصـــعد اليه الوزير ويقبل يديه ثم يزر على القبة لتصـــبح أســـتارها كالهودج . وكان الخليفة يقرأ الخطبة من ورقة وهو خلفها ولا يراه أحد وكانت هذه الخطبة قد دبجت فى ديوان الانشــاء وتتضمن المــدح فى الرســـول وآل البيت الفاطمى . ثم يختمها بالدعاء . بعدها يصـــعد الوزير ويفك أزرار الهودج وينزل الخليفة للمحراب ويؤم المصـــلين فكان يقرأ فى الركعة الأولى ما كتب على الســـتارة اليمنى وبالركعة الثانية ما على الســـتارة اليسرى بعدهما يفرغ من الصلاة ويعود للقصر وسط موكبه .

وكانت صــــلاة الجمعة اليتيمة (الأخيرة) فى رمضـــان يصـــليها الخليفة الفاطمى فى جامع عمر بالفسطاط وكان يزين له الطريق حتى مصـــر القديمة حيث كان يصـــطف على الجانبين الجنود والأهالى وكان يلقى بدنانير الذهب عليهم أثناء ســـــير الموكب . وظل جامع عمرو تقام به صـــلاة الجمعة الأخيرة من رمضـــان حتى قيام الثورة عام ١٩٥٢ .

وبعد ســـقوط الدولة الفاطمية أصـــبحت الاحتفالات برؤية هلال رمضـــان ســـمة كل عام . وكان يخـــرج للرؤية قاضى القضـــاة ومعه قضـــاة المذاهب الأربعة ومعهم الشهود ومحتسب القاهرة والتجار والأعيان والحرفيون والأهلى . وكان يشـــاهد الهلال من فوق مئذنة جامع مدرسة الســـلطان قلاوون بالنحاسين أيام المماليك . وكان بعد الرؤية يعودون فى موكب حافل تتقدمه المشـــاعل والشـــموع والقناديل . وكانت الحوانيت تضـــاء ليـــلا .

وفى غرة الشـــهر المبارك كان ســـلاطين المماليك يجلسون فى ميدان القلعة . وكان القضـــاة والأمراء والتجار يأتون اليهم للتهنئة بالشـــهر الكريم . وكان المحتســـبون يعرضـــون عليهم أحمال الدقيق والخبز والســـكر والمواشى التى ســـتقدم كصدقات فى رمضـــان .

وأيام العثمانيين كان موكب الرؤية يخـــرج من أمـــام دار المســـتحفظان الى المحكمة الشـــرعية ويتقدمه والى القـــاهرة وحوله الجنود الانكشـــارية وأمامه الموســـيقى وخلفها الفرسان ويتبعهم عربات مزينة يعرض عليها أصـــحاب الحـــرف حـــرفهم وصـــناعاتهم وكانت تزين هذه العربات بالأعلام . وكانت تطلق المدافع من القلعة احتفالا بحلول شـــهر رمضـــان . وكان هذا الموكب يســـير فى شـــوارع القاهرة الرئيســـية . وظلت هذه المواكب ســـائدة حتى ألغيت أيام الثورة واكتفى بالاحتفال بالرؤية الذى تقيمه دار الافتاء .

وأثناء هذا الشـــهر المبارك كانت تتعطل دواوين الحكومة . وكان المحتســـب يمر بشـــوارع القاهرة والفســـطاط ويحاســـب المفطرين . وكانت المطاعم والمقاهى تغلق بالنهار والخمارات كانت تغلق طوال شـــهر رمضـــان . وكان المســـحراتية يجـــوبون الشـــوارع ليلا يضـــربون على الطبلة بدعون الناس للســـحور . وكانت مآذن المســـاجد تضـــاء بالقناديل من موعد الافطار حتى الســـحور وتطفىء ايذانا للامســـاك عن الطعام .

وكانت صـــلاة العيد تقام خارج ســـور القاهرة فى مصـــلى العيد خارج باب النصـــر . وكانت المصـــلى على ربوة ومبنية بالحجر ولها ســـور وعلى بابه برج . وكان لها محراب تحت قبة

كبيرة وبجواره منبر مكشـــوف . وكان الخليفة الفاطمى يخرج اليها لصـــلاة العيد فى موكبه المعهود .وكان يخرج اليها من باب العيد بالقصـــر . وكان يؤم صـــلاة العيد . وبعد الصـــلاة كان يصـــدر ســـجل البشـــارة من ديوان الانشـــاء ليســـجل هذا الحدث .

وكان المصـــريون يتشـــائمون من مجىء العيد يوم الجمعة ويعتبرونه فالا ســـيئا على السلطان . لأنه فى هذا اليوم يدعى له فى الخطبتين مرتين فى يوم واحد ، وقد عاصـــر الســـلطان الأشـــرف قايتباى أعيادا خمســـة أيام جمع ولم يؤثر فيه شىء . ولما أتى عيد الفطر يوم جمعة أيام الســـلطان الأشـــرف تشـــائم المصـــريون واعتقدوا فيما بينهم بزوال ملكه . لكن لســـوء حظه تفشى فى شـــوال الطاعون وكان يقوم بالقاهرة كل يوم أربعة آلاف جنازة . لهذا (منع اجراء العازات بدق الطارات ولا نائحة تنوح على ميت) .

أما مظاهر الاحتفالات فكانت كثيرة ومتعددة . فأيام الحكم العثمانى كان الوالى والمماليك يقيمون احتفالا ســـنويا بارســـال خزينة المال (الصرة) الى الآســـتانة وكانت تضـــم الخـــراج الســـنوى المقدر على الديار المصـــرية . وكان يبلغ ١٥٠ ألف قرش ســـنويا . وكان الصـــناجة يخرجون بالصرة من القلعة ويحرســـونها مع جنود الانكشـــارية وأمراء المماليك وكانت تنزل من القلعة فوق ٣٠ بغلا وســـط دق الطبول .

ومن المظاهر الاحتفالية بالقاهرة الاحتفال بختم صـــبى لحفظ القرآن فى الكتاب على يد عريفه . فكان أبوه يقيم له موكبا يدور به فى شـــوارع القاهرة فوق ركوبة لابسا العمامة ومرتديا ثوبا

حريريا وكانت تدق له الطبـــول وينهال العامة على يديه يقبلونها تبركا به . ويوزع الحلوى والشراب . وكانت النسوة يزغردن له .

أما ختان الصـــبى فكانت له مظاهر احتفالية بعدما يقوم الحلاق بختانه واضـــعا فى فمه قطعة ســـكر حتى لا يصـــرخ . ثم بعد هذه العملية كان يرتدى جلبابا جديدا ويدار به فوق حصان فى الشوارع بالحى حتى يصـــل للمســـجد وحوله باقات الزهور ويقدم الحلوى والطعام له وللحاضـــرين ويوزع عليهم الشربات . وكان المماليك ينفقون ويســـرفون على حفـــلات ختان أبنائهم . فكانوا يقيمون الزينات بالشـــــوارع ويدعون المغنيين والمغنيات لامتاع الناس وينقلب الليل فى هذه الحفلات نهارا كما يقول ابن اياس . ففى سنة ٦٦١ هـ/١٢٦٣ م . ختن الســـلطان بيبرس ولده الملك الســـعيد (ورسم للأمراء والجند وبقية الرعية أن كل من له ولد فليطلع به الى القلعة حتى يختن مع ابن السلطان . فأحضـــر الناس أولادهم فبلغ عددهم نحو ١٤٥ ولدا خارجا عن أولاد الأمراء والأعيان . فرســـم لكل واحد منهم بكســـوة على قدر مقام أبيه وأما أولاد الحرافيش فرسم لكل واحد منهم بكســـوة ومائة درهم ورأس غنم . واستمر المهم (الاحتفال) عمالا فى القلعة سبعة أيام .

وفى عام ١٦٩٦ م أيام الوالى العثمانى اسماعيل باشا ختن ابنه وكان عمره ١٥ سنة . فدعا لحفل الختان كل وجهاء القاهرة والأقاليم وأعلن كسوة كل من يختن مع ابنه واســـتمر الاحتفال عشـــرة أيام بالقاهرة . حيث كانت . ســـباقات الخيل وعروض المهرجين والبهلوانات . وكانت هذه ايضـــا مناســـبة الاحتفـــال بمولود الســـلطان بالآســـتانة الذى ســـماه محمود . وزينت أســـواق القاهرة وضـــربت المدافع من القلعة .

وكان احتفال الختان قد بدأ بدق الطبول وضـــرب المدافع وصـــــعد الوجهاء بقصـــر الباشـــا وفى وســـــط فناء القلعة كان يوجد خيمتان احداهما للراقصـــات والموســـيقيين والثانيـــة لضـــاربى الدفوف والطبول والأبواق . وعند ختان صـــبى كان تضـــرب له تحية ســـلام أما ابن الباشا فلقد لبس ملابس فاخرة وغيرها فى الحفلة أربع مرات .

وازينت القاهرة ليلتها وطوال ليـــالى الاحتفـــال بمائة ألف قنديل . وكان يوزع الطعام على الفقراء فى الأحياء طوال الأيام العشـــرة من الاحتفال . وقد ختن فى أول يوم ٥٠٠ صبى بعدهم ختن ابراهيم ابن الباشا وبعدها نزل على حصـــان من القلعة وأمامه وحوله فرســـان التشـــريفة وســـار حتى وصـــل جامع أحمد بن طولون . وكانت الدنانير الذهبية تلقى على الجمـــاهير المحتشـــدة لمشاهدة الموكب . ورفض الباشا قبول الهدايا المعتادة فى هذه المناسبات .

وكان المدعوون للاحتفالات مقيمين عشـــرة أيام بالقلعة يقدم لهم فيها أفخر الأطعمة . وكانت القاهرة رغم هذه المظاهر الاحتفالية والبذخ فى القلعة التى شـــهدت قبل الحفلة بعدة شـــهور ثورة الجياع عندما وقفوا بحوش الديوان يطالبون بالخبز ، ونزلوا الى الرميلة ينهبون مخازن قمح الأمراء وكتخدا . وأتى أهالى الأرياف الى الأزقة يأكلون الجيف ومات الكثيرون جوعا هكذا قال الجبرتى . فى أحداث سبتمبر ١٦٩٥ م .

ومن العادات اقامة ســـبوع المولود وهذه عادة كانت قائمة ومازالت حتى اليوم وهو عبارة عن حفل يقام بعد أســـبوع من ولادة المولود حيث يضـــاء البيت بالشـــموع ويقـــدم الحـــلوى

والهدايا والطعام للمهنئين وفى هذا اليوم كان يطلق عليه اسمه . واذا كان المولود ذكرا زين له ابريق ولو كان انثى زينت لها قلة . وكان هناك مراسيم تدار احتفالا بالسبوع .

واهتم القاهريون بالعرس وهو من أهم الاحتفالات الشعبية حيث كانت العروس تتحفى بالحنة والزعفران قبل أن تستحم فى حمام عام وكانت تذهب مع صديقاتها للاستحمام به والتزين فيه بواسطة الماشطة والبلانة وتقوم الجوارى بتدليك جسمها . وكانت تطلق الزغاريد وتدق الطبول وتردد الأغانى التى تعبر عن الفرح .

وقد وصف المقريزى أحد أفراح القصور والسلاطين . فوصف احتفال السلطان الناصر بن قلاوون بزفاف ابنه الأمير أنوك : فقال : أمر السلطان احضار جميع من بالقاهرة ومصر (الفسطاط) من أرباب الملهى الى الدور السلطانية . ووقع الشروع فى عمل الخوان (البوفيه) فأقام المهم سبعة أيام بلياليها . فلما كانت ليلة السابع منه جلس السلطان على باب القصر وتقدم الأمراء على قدر مراتبهم واحدا بعد واحد ومعهم الشموع . فاذا قدم الواحد ما أحضره من الشمع قبل الأرض وتأخر ومازال السلطان بمحله حتى انقضت تقادمهم . فكانت عدتها ثلاثة آلاف شمعة زنتها ثلاثة آلاف وستون قنطارا . حتى اذا كان آخر الليل نهض السلطان وعبر حيث مجتمع النساء . فقامت نساء الأمراء بأسرهن ، وقبلن الأرض واحدة بعد أخرى وهى تقدم ما أحضرت من التحف الفاخرة والنقوط . حتى انقضت تقادمهم جميعا . ورسم السلطان برقصهن عن آخرهن . فرقصن أيضا واحدة بعد واحدة . والمغانى تضرب بدفوفهن . وأنواع المال من الذهب والفضة وشقق

الحرير يلقى بها على المغنيات تحصـــل لهن ما يجل وصـــفه . ثم زفت العروس .

وهذا الفرح ذبح فيه مواشى وأوز ودجاج عشـــرين ألف . واســـتهلك فيه ســـكر ثمانية عشـــر ألف قنطار لعمل الحلوى والمشـــروب .

ووصـــف المقريزى جهاز (شـــوار) العروس قائلا يتضمن شـــوار العروس دكة نحاس مكفت . وهذه الدكة كانت تشـــبه الســـرير وهى من الخشـــب المطعم بالعاج أو الأبنوس وقد يبلغ ثمنها ٢٠٠ دينار ذهبا . واذا كانت العروس من بنات الأمراء أو الأعيان فتجهز بســـبع دكك . وكل دكة يوضـــع فوقها طاسات من النحاس الأصـــفر المكفت بالفضـــة ودســـت (أوانى) من ســـبع قطع مختلفة الأحجام . وقد يصـــل حجم الدســـت ما يسع أردب قمح وهو من النحاس .

وفى ليلة الدخلة يتجه العريس لمنزل العروس فى زفة كبيرة حوله الأهل والأصـــدقاء حيث يصـــل بيت العروس الذى يقام فيه الحفل وتحييه جوقة من المغانى . وترى المدعوات يلبســـن افخر الثياب ويزغردن ويفاخر المدعوون بتقديم النقوط للمغنيات والهدايا لأم العروس . وعادة تكون شـــموعا وتحفا فاخرة وخرافا وسكرا وأرزا ودقيقا وسمنا وطيورا .

وكان من مظاهر الاحتفالات الســـنوية الاحتفال بكســـر الســـد عند فم الخليج بمصـــر القديمة وكان هذا الاحتفال بوفاء النيل . فكان يحضـــره الســـلطان أو الوالى العثمانى . وكان يتوجه الســـلطان بموكبه وحوله العسكر والأمراء وينزل من على فرســـه حيث أقيمت الزينات ثم يقوم بضـــرب فأســـه بالســـد فتغمر المياه الخليج وتظل هذه الاحتفالات بعده ســـبعة أيام ..

وكان مكان الاحتفال فى جزيرة الروضـــة قرب مقياس النيل . وكان الأهالى يركبون المراكب ويزينوها ويشـــعلون القناديل فوقها ليلا . وينزل الأطفال عراة فى النيل . وهناك كانت تعقد أســـواق فيها الباعة والحواة . وتغمر مياه الفيضـــان بركة الازبكية التى كانت منتزها للقاهرة وبركة الحبش جنوب الفســـطاط كانت تموج بالمراكب يتنزه بها أهل القاهرة ، وكان المماليك كعادتهم يخرجون بخيامهم ونســـائهم وأطفالهم ويقيمون على شاطىء النيل يأكلون ويشـــربون ويقيمون الموائد احتفالا بالنيل .

وقد وصـــف ناصـــر خسرو فى (سفرنامة) هذا الاحتفال فقال : هذا اليوم من أعظم الأعياد فى مصـــر ويســـمى عيد ركوب فتح الخليج . لأن الســـلطان ينصـــب على رأس (فم) الخليج ســـرادق عظيم من الديباج الرومى وموشى كله بالذهب ومكلل بالجواهر . ويســـير فى ركاب الســـلطان عشـــرة آلاف فارس على خيولهم ســـروج مذهبة . ويبين خســـرو أن كل جيش الخليفة الفاطمى كان يخرج للاحتفال . ومعهم الأدباء والشعراء والفقهاء . ويضـــرب الطبل والمزمار وينفخ فى الأبواق . ويســـير مع الخليفة حامل المظلة راكبا حصـــانه وكان الخدم يســـيرون على جانبيه بالمباخر وفى معيته قاضى القضاة .

ويقول خســـرو : فى هذا اليوم يخرج جميع ســـكان مصر والقاهرة للتفرج على فتح الخليج وتجـــرى فيه أنواع الألعـــاب العجيبة . وكان ناصـــر خسرو شاهد عيان .

وابن ظهيرة لم يفته وصـــف كســـر الخليج فى (محاسنه) فيقول : يوم مشـــهود يركب له الســـلطان أو نائبه مع أمراء وأركان الدولة من قلعة الجبل الى الرميلة ثم الصـــليبة فمناظر

الكبش (منظرة) الى أن يدخل مصــر العتيقة تجاه دار النحاس على شـــاطىء النيل فينزل هنــاك الســلطان بالحـــراقة (سفينة) وينزل من معه بالذهبية (مركب مزينة بالذهب) وهناك مراكب شـتى وحراريق لا تكاد تحصـر مزينة . ثم تسـير الحراقة بالسـلطان وتلك المراكب كلها . فيشـق بحر النيل الى أن ينتهى الى الروضـة آخر الـكلام . ثم يعود السـلطان . فيقطعون ذلك الكوم (الســد) فى أقل من دقيقة ثم يكسر راجعا الى القلعة المنصورة .

وكان يطلق على الســد خلف فم الخليج اسم « الســد البرانى » وكان يقوم بعض الســلاطين بمعول من الذهب الخالص ويضـرب السد ثلاث ضـربات . ويأخذ الناس بفؤوسـهم يحفرون فيه حتى يجرى الماء للخليج . ويقال أن الفراعنة كانوا يحتفلون بهذا العيد ويسمونه يوم الزينة .

وكان الاقباط يحتفلون بعيد الشـهيد فى شـهر بشنس (قبطى) وكانوا يغسـلون فيه (اصبع الشهيد) وهى اصبع أحد قديسيهم . وكان جميع أهل القاهرة والفسطاط يخرجون هذا اليوم للنيل حيث تقام الخيام . ويمتد الاحتفال لمدة ثلاث ليال حيث الرقص والخمر واللهو البرىء والغير برىء وكما يقول المقريزى : ولا يبقى مغن ومغنية ولا رب ملعون ولا بغى ولا مخنث ولا باض ولا خليع ولا فاسـق ولا فاتك الا ويخرج لهذا العيد . الا أن بعض سـلاطين المماليك أبطلوه لما كان فيه من معاص .

وكان أيام عصـر المماليك قد ظل عيد الفيروز يقام سنويا وهو عيد فارسى . وكان فى أول شـهر توت ويوافق رأس السنة القبطية وهذا العيد قد فرضـه الفرس أيام حكمهم لمصـر لأن عيد النيروز عندهم يوافق ٢١ مارس وهو عيد الربيع هناك . وأيام

المماليك كان هذا العيد كما وصـــفه المقريزى من الأعياد القومية المصـــرية التى كان يتحرر فيها المصـــريون بشتى طوائفهم من روتين الحياة . فكانت الشوارع مدعاة للمرح والتهريج البرىء . فكانوا يتراجمون بالبيض ورش الماء ويؤكل فيه البطيخ والخوخ والزلابية والهريســـة . وكان الناس يتبادلون هذه الأصـــناف من الحلوى التى كانت تصنع فى البيوت . وكانت الأســـواق والمدارس تغلق فى هذا اليوم . لكن هذا العيد بدأ يختفى منذ عصـــر المماليك الشـــراكسة . فعندما تســـلطن الســـلطان برقوق أمر بابطاله وهدد من يحييه أو يفعل ما يفعل فيه بالشـــنق فأبطل هذا من القاهرة منذ عام ٧٨٧ هـ/١٢٨٧٥ م . ويصف ابن اياس رغم تحسره على ابطاله ما كان يقام فى هذا اليوم بقوله : انه كان يجتمع فى هذا اليوم السواد الأعظم من الأســـافل . فيقفون على أبواب الأكابر من أعيان الدولة . فيكتب أمير النيروز وصـــولات بالجمل (الأموال) الثقـــال وكل من امتنع من الأكابر بهدلوه وســـبوه ســـبا قبيحا ولايزالون مترســـمين على بابه حتى يأخذوا منه ما يقرون عليه من الدراهم . فيأخذون ذلك منه غصبا ويمضون . وكان (العياق يقفون فى الطرقات يتراشـــون بالماء البخس ويتراجمون بالبيض النىء فى وجههم ويتصافعون بالأنطاع والأضفاف .. وكل ممن ظفروا به فى الطرقات بهدلوه) .

(١٥)

طلعـــة المحمـــل

من المظاهر الاحتفالية الكبرى فى القاهرة دوران المحمـــل وطلعته . ولقد وصـــف ابن ظهيرة دوران المحمـــل الشـــريف المتوجه الى بيت الله الحرام وزيارة قبر الرســـول . فقال : من شـــهر رجب فى كل عام بعد النداء بين يدى مصر القاهرة ثلاثة أيام . فيدور المحمل فى اليوم الرابع ومعه كسوة الكعبة المشـــرفة مقام سيدنا ابراهيم الخليل عليه الســـلام بالحجرة الشـــريفة . كل ذلك من الحرير المذهب المنمق النفيس . ثم يمرون بذلك من باب القاهرة الى الرميلة (ميدان القلعة) تحت القصـــر بقلعة الجبل تجاه باب السلسلة لينظره الســـلطان وهو بالخرجة (منصة) من القصـــر ومعه القضـــاة الأربعة ونوابهم والأعيان وســـائر فرق الفقراء (الصـــوفيين) بأعـــلامهم وطبولهم . فيقبل جمله (جمل المحمل) الأرض (يبرك) للســـلطان ثم يمضـــون الى مصـــر العتيقة وهى مزينة كذلك ثم يعود للقاهرة . ويقوم الجنود بالاســـتعراض العســـكرى ومعهم الفرســـان يستعرضون العابهم بالرمح والقبق .

ووصــف ابن بطوطة عرض المحمل فى شـــهر رجب للاعلان عن قرب الخروج فى شـــوال بطلعة المحمل للحجاز . فوصــف دوران المحمل بأنه يوم مشـــهود حيث كان القضـــاة الأربعة ووكيل بيت المال والمحتســـب ويركب معهم أعلام الفقهاء وأمناء الرؤساء وأرباب الدولة . ويقصدون جميعا باب القلعة . وكان وصــف ابن بطوطة لما شـــاهده فى عصـــر الناصـــر أحمد ابن الناصـــر قلاوون . ويضـــيف : فيخرج اليهم المحمل على جمل وأمامه الأمير المعين لســـفر الحجاز فى تلك السنة (كان يعينه الســـلطان ويلقب بأمير الحج) . ومعه عســـاكره والســـقاؤون على جمالهم .. ثم يطوفون بالمحمل بمدينة القاهرة ومصـــر والحداة يحدون أمامهم ، ويكون ذلك فى رجب . فعند ذلك تهيج العزمات وتنبعث الأشواق وتتحرك البواعث ويلقى الله تعالى العزيمة على الحج فى قلب من يشـــاء من عباده فيأخذون فى التأهب لذلك والاستعداد) .

فاذا كان دوران المحمل فى شهر رجب للاعلان عن الاستعداد للطلوع للحج . فان أيام العصـــر الفاطمى كان يكتفى فى منتصف رجب بقراءة مرســـوم الخليفة فى المســـاجد يقول فيه : يامعشر المســـلمين حل موســـم الحج وســـيجهز ركب السلطان كالمعتاد وسيكون معه الجنود والخيل والجمال والزاد .

وكان ينادى مرة ثانية فى رمضـــان ، وأيام العصـــر الفاطمى كانت الكســـوة كما يقول ناصر خســـرو ترســـل للكعبة مرتين ســـنويا .

ويصـــف الجبرتى موكب المحمل عند خروجه للحجاز فقال فى أحداث ١٧٧٩ م « عمل موكب المحمل وخرج الحجاج وأمير الحـــج مراد بك . وخرج فى موكب عظيم . وماجت مصر وهاجت فى أيام خروجه بســـبب الاطلاب وجمع المال وطلب الجمال والبغال

والحمير . وغصبوا بغال الناس ومن وجدوه راكبا على بغلة أنزلوه عنها واخذوها منه قهرا » .

وكان حج عام ١٧٨٤ م قد حدث فيه مشـــكلة فبعد خروجه من القاهرة رفض أمراء المماليك ولاسيما مراد بك وابراهيم بك دفع الميرى لصـــرة الحج . الا أن مراد بك وكان نائب شيخ البلد اضـــطر (لتشـــهيل الحج) وكان الموكب حقيرا جدا بالنسبة للمواكب المتقدمة . هكذا قال الجبرتى .

وفى محمل الحج عام ١٧٨٦ م . وقف العرب للحجاج فى طريق المدينة المنورة وحاربوهم ســـبعة أيام وجرح أمير الحج محمد بك المبدول . ويقول الجبرتى : نزل الحجاج ودخلوا مصر على حين غفلة وهم فى أسوأ حال من العرى والجوع ونهبت جميع احمال أمير الحج واحمال التجار وجمالهم وأثقالهم وأمتعتهم . وأسر العرب جميع النســـاء بالأحمال .. واســـتغاث الحجـــاج بأحمد باشا الجزار أمير الحج الشامى . فتكلم مع العرب فى أمر النساء فأحضروهن عرايا ليس عليهن الا القمصـــان . وكان هذا بسبب ســـوء تصـــرف أمير الحج لأنه لما دفع العوايد للعرب أخذ منهم رهائن أربعة منهم كالعادة الا انه كواهم بالنار فى وجوههم . فبلغ ذلك أصـــحابهم وقطعوا على المحمل الطريق) .

« وعند عودة هذا المحمل المنكوب زور محمل من المحـــامل القديمة وأتبع رجوعه بالكذب . لكن بعد عدة شـــهور افتدى رجل من الأشـــراف المحمل وارســـله الى مصر . ودخلوا به من باب النصـــر وامامه الأشـــاير والطبول والزمور والشـــريف ســـرور راكب امامه » .

وكان من الامور المعتادة ســـنويا وصـــول ركب الحجاج الفاسى والأندلسى والتونسى والجزائرى والليبى . وكانت مدينة

الفسطاط مؤهلة لوفود هؤلاء الحجاج قبل انشاء القاهرة . وظلت قوافل حجاج أهل الأندلس تصل اليها سنويا بانتظام حتى سقوط بلادهم عام ١٤٩٢ م فى أيدى الفرنجة . وكان ينضم لموكب الحج المغربى مواكب الحج من غرب أفريقيا والأندلس فى مدينة فاس بالمغرب . وكانت هذه المواكب تسير برا باتجاه القاهرة لتصل الوفود اليها فى شهر رمضان وكانت بعض القوافل تصل بحرا الى الاسكندرية لتصل الى القاهرة والفسطاط عبر النيل . وهذه السياحة الدينية كانت تنعش اقتصاد مصر ولا سيما خلال شهر رمضان قبل طلعة المحمل ، وفى شهر صفر عند عودته للقاهرة . وكانت هذه المحامل تنضم للمحمل المصرى كل عام وتسير فى حمايته) .

وكانت القاهرة والفسطاط تستعد قبل شهر رمضان لاستقبال هذه الوفود وكانت السلطات تعمل على راحتها وحسن استقبالها وتذليل العقبات لها . وكان السلاطين يستقبلون كبار الزوار وينزلونهم فى ضيافتهم طوال اقامتهم بالقاهرة . وكان من بينهم ملوك وأمراء وكبار علماء لتعزيز الروابط بينهم .

وكانت وفود مواكب الحج تدخل ديار مصر وثغورها بلا قيد ولا شرط وقد أعفيت من اى رسوم أو جمارك أو مكوس . وكانت التجارة التى مع التجار بالموكب معفاة تماما من الضرائب والجمارك حتى لو باعوها بأسواق مصر . لهذا كان الحجاج يحملون معهم ما خف وزنه وغلا ثمنه . وفى ميناء بولاق كانوا يدخلون القاهرة بلا تفتيش . وكان سلاطين المماليك حريصين على اظهار الود والتكريم للقادمين ولاسيما وأن الخلافة العباسية كانت قائمة بينهم فى القاهرة . كان المماليك حريصين على أن يظهروا بأنهم حماة الاسلام .

فكان ابتداء من منتصـف شـهر رمضـان من كل عام تنهال الوفود الأفريقية على القهرة وكان الوافدون برا يصـلون من صـحراء وادى النطرون الى امبابة متحاشـين دخول الاسكندرية وفى امبابة كان يتركون دوابهم لتسـتريح هنـاك أو تباع فى أسواقها وكان الحجاج يكثرون دوابا أخرى أو يشـترونها قبل طلوع المحمل لتواصـل الرحـلة . أما الذين جاءوا بحرا فعند وصـولهم للقاهرة والفسـطاط كانوا يجهزون ركبهم اسـتعدادا للسفر . وكان التجار المغاربة ينـزلون أثناء اقـامتهم بمصر فى الوكالات وغيرهم كانوا يتوجهون الى حى جامع ابن طولون الذى يأويهم ولاسيما وأنه قريب من الرميلة حيث كان يباع الجمال والبغال ولوازم السـفر . وكان الفقهاء والعلماء يسـكنون حى الأزهر بجـوار الجـامع ليترددوا عليه ويستمعوا للدروس به أو يلقوا دروسـهم فيه .

وكان فقراء الركب ينزلون بجامع ابن طولون ويعسـكرون بخيامهم حوله أو ينزلون بجامع ببولاق . وكان من عادة المغاربة وهم بالقاهرة زيارة الأضرحة والأولياء . وهم مالكيو المذهب وكانوا متشددين دينيا .

ومن عادتهم كل عام المشـاركة فى حمل كسـوة الكعبة أثناء دوران المحمل بشـوارع القاهرة ليتبركوا بها . وكان المغاربة لأنهـم مالكيون يصـطدمون عندما يلاحظون منكرات شـرعية بالشـوارع ولاسـيما التدخين . ففى سنة ١١١٠ هـ/١٦٩٨ م كانوا يضـربون كل من يدخن الدخان فى طريق مرورهم بشوارع المدينة . ففى هذه السنة شـهدت القاهرة واقعة المغاربة كما يصـفها الجبرتى عندما رأوا رجـلا من اتباع الكتخدا يدخن (الشـيشة) (فكسـروا أنبوبته وتشـاجروا معه وشـجوا راسـه . وكان فى مقدمتهم طائفة منهم متسـلحون وزاد التشاجر

واتسـعت القضـية وقام عليهم أهل السـوق وقبض عليهم وسجنهم الباشا فى العرقانة حتى سافر الحجاج .

وكان المغاربة الذين سـكنوا حى بولاق على النيـل قد شـاهدوا العسـاكر القليونجية (من المماليك) ومعهم النسـاء يتعاطون المنكرات الشـرعية . فنهاهم المغاربة وخصـوصا أنهم فى شـهر رمضـان عن فعل القبيح أو يتباعدون عنهم (فضربوا عليهم طنبجات فثار عليهم المغاربة . فهرب القليونجية الى مراكبهم فنط عليهم المغاربة خلفهم واشـتبكوا معهم ومسـكوا من مسكوه وذبحوا من ذبحوه ورموه الى البحر (النيل) وقطعوا حبال المراكب ورموا صـواريها وحصـلت زعجة فى بولاق تلك الليلة وأغلقوا الدكاكين وقتل من القليونجية نحو عشـرين ومن المغاربة دون ذلك) . هكذا قال الجبرتى فى عرضه لأحداث رمضـان ١٨٧١ م . وكانت هذه الحادثة سـببا فى اجلاء المغاربة من القاهرة الى العادلية . هددوا كل من يأويهم بالعقاب . وفى سنة ١٢١٨ هـ / ١٨٠٣ م منع المماليك البكوات المغاربة من دخـول القـاهرة . وسـمحوا لمن يدخلها لقضـاء حاجة أن يكون بلا سـلاح . ونزلوا فى بولاق . حيث انتقلت اليهم الأسـواق . وعند وصـول الركب الفاسى للقاهرة كانت المدينة يعمها الرواج وترتفع ايجـارات المسـاكن ولا سيما التى حول الجامع الأزهر . وكان السـماسرة يسـتقبلونهم فى بولاق بعد عبورهم من امبابة ليعرضـوا عليهم خدماتهم .

وفى عام ١٢١٣ هـ/١٧٩٩ م . كان أول احتفـال بموكب الكسـوة الشـريفة أيام الفرنسـيين . ونودى بالأسـواق بخروج المحمل من قرة ميدان (ميدان القلعة) ويقول الجبرتى : فمروا بذلك أمام (الكسـوة) الوالى والمحتسـب وعليهم القفاطين والبينشـات (ملابس) وجميـع الأشـاير بطبولهم

وزمورهم وكاســاتهم) . وكان معهم بارتللى مستحفظان القاهرة (حكمدار) وأمامه عســاكره من الاروام بالأســلحة . وكان الموكب بضــم ناظر الكســوة . وكانت الكســوة تنسج بالقلعة بدار الطراز الا أن هذه السنة نسجت ببيت مصطفى كتخدا . ولم تبد على أهالى القاهرة اى فرحة لأنهم مستعمرون . وكان نابليون وقتها بيافا . ولم يحضــر المغاربة الى القاهرة كالعادة لأن مصر محتلة . وأصــاب الكســاد الأسواق ولم يعم بالقاهرة الرواج .

وأيام المغاربة يصــف الزيانى المؤرخ المغربى رحلته للقاهرة بقوله : كان هناك فضــاء واســع خارج قلعة الجبل فيه تباع الابل والخيل وســائر الدواب . وبه يوجد غالب ما يحتاجه الحاج من الأثاث والأمتعة وتنصــب فيه أيام الموســم أراحى متعددة لتدشيش الفول يديرها الرجال بأيديهم مع كبرها .. يطحن الرجلان ارادب متعددة فى يوم واحد فتكون بالرميلة صبر من الفول المدشش كل صــبرة تزيد على المائة أردب ومن هناك يكيل غالب الحجاج ارادب متعددة فى يوم واحد فتكون بالرميلة صبر من الفول المدشش علفا للدواب أثناء رحــلة المحمل حيث كانت الرميلة يبــاع بها الدواب للحجاج . وكان الحجاج المغاربة يتحاشــون دخــول القاهرة لو كان بها وباء أو مجــاعة أو اضــطرابات . فيظلون بالقرى حول امبابة لحين موعد طلعة المحمل . وأيام الفرنســيين منعوا من الدخول القاهرة لأن أهلها أشــاعوا أن المغاربة قادمون للجهاد . فعزلهم الفرنســيون من الأســلحة ومنعوا دخــولهم المدينة . وجعلوهم يمرون للعادلية وهناك سلبوهم أسلحتهم بعد مفاوضــات مضنية لأنهم قالوا : ان هذه الأســلحة لحراســة موكب الحجاج .

وكانت رحــلة الحج تســتغرق أربعة شــهور من شــهر شــوال وحتى صــفر . وكان موكبه يرأســه أمير الحاج المصرى

ومعه قوات لحمايته من قطاع الطرق وعرب الدرب الذين يقيمون على طريق الحج . وكان جزء من القافلة يتجه بالبحر من ميناء عيذاب بجنوب شـــرق مصـــر وكانت الرحلة البحرية أقل مشـــقة وأمنا وأقصـــر وقتا الا أنها أكثر خطورة لتعرض المراكب للغرق . وكانت تبحر نهارا وترســـو ليلا خشـــية الارتطام بالشـــعاب المرجانية بالبحر الأحمر وظل هذا الركب المغربى والليبى والجزائرى والتونسى والأفارقة يأتون ســـنويا للقاهرة فى موسم الحج حتى افتتحت قناة الســـويس عام ١٨٦٩ م للمـــلاحة العالمية واحتلت فرنسا تونس والجزائر والمغرب وكانت ســـفنها تحمل الحجاج بحرا وتعبر بهم القناة الى جدة بالحجاز . والغى دوران وطلعة المحمل مع الثورة وكان يطلع من العباســـية بالقطار الى السويس ومن هناك تحمل البواخر الحجاج وكان قطار المحمل يســـتقبله الأهالى بالزغاريد على طول الطريق وكان يجرى احتفال بالسويس لطلعة المحمل النبوى الى الســـفينة . لكن الآن الصـــورة تغيرت مع الزمن والطائرات والعبارات .

(١٦)

قاهـــرة البـــكوات

بعد دخول العثمانيين مصـــر عام ١٥١٨ م هادنوا المماليك ولا ســـيما أيام الســـلطان العثمانى سليمان القانونى الذى سمح للمماليك بالاحتفاظ بامتيازاتهم . وكان هدفه من هذه المهادنة منعهم من تشـــكيل قوة تقوم بالتمرد أو الثورة ضـــد الســـلطنة العثمانية الا أنهم كثروا عن شـــراء المماليك وأصبح كل أمير له مجموعته وأطلق على نفســـه لقب بك . وأصبح هؤلاء البكوات يحكمون مصر والقاهرة . واســـتطاعوا عزل الوالى الباشا داخل القلعة التى كان يطلق عليها ديوان مصـــر الذى لم يكن له حول ولا قوة ســـواء مع الحامية التركية أو معاونيه أو مع أمراء المماليك . الذين أصبح زعيمهم يســـمى بشـــيخ البلد وهو الحاكم الفعلى للبلاد يجبى الأموال ويقدم الصـــرة سنويا للآستانة .

وكان لكل وال عثمانى جديد مراســـم احتفال خاصـــة . فلو جاء بحرا للاســـكندرية كان كتخدا المدينة يســـتقبله فى الثغر ويســـافر الى رشـــيد ومنها يركب المركب الى القاهرة بالنيل . وعلى طول الطريق تســـتقبله النســـوة بالزغاريد على الشاطئين الى أن يصـــل الى الوراق ويبيت ليلته هناك ثم يعبر النيل لبولاق

حيث تقام له احتفالات الاســتقبال ويســير فى موكب من الخيول والجمال المزينة وهو فوق حصــانه ويمر بشــوارع القاهرة وحوله مشــاة الانكشــارية والمماليك والجنود السباهية فوق جيادهم حيث يصــل الى مكان الاحتفال بميدان القلعة وتقام له الموائد يحضــرها الأمراء والأعيان . ولو كان قدومه لمصــر برا من الشــام فيصــل الخانكة ويبيت فيها ثم ينزل القاهرة فى موكبه صــباحا ثم يزور الامام الشافعى قبل أن يطلع للقلعة حيث مقر الوالى .

وكان لعزل الوالى مراســيم خاصــة متبعة . فيصل مندوب الســلطان للقاهرة . ووصــوله معناه عزل الباشا . وكان يتوجه الى القلعة ويجتمع بالوالى وأمراء المماليك البكوات . وعندما يدخل قاعة الديوان يلقى بالفرمان بجــانب من القــاعة وهذا معنــاه عزل الوالى . بعدها يقوم (البكوات) بمحاسبته ويطالبونه بالأموال التى أخذها منهم وكان الوالى المعزول يخرج من القلعة ليعود لبلاده أو الى المكان الجديد الذى عين فيه .

وكان الولاة يعينون بالرشــوة لحاشــية الســلطان فى الآســتانة . وكانت الولاية لمن يدفع أكثر دون مراعاة لقدرات الوالى أو كفاءته . وكان عادة التجار الفرنســيين فى مصــر هم الذين يدفعون هذه الأموال لمن يختارونه حتى يســهل لهم أمورهم بها ويحميهم من ظلم المماليك . وكانت ســياسة الباب العالى عدم اســتمرار الولاة فى ولاياتهم حتى لايقووا ويتمردوا أو يســتقلوا بالولاية .

وكان الرحالة أندريه تيفيه قد زار مصــر العثمانية عام ١٥٥٠ م أى بعد دخول العثمانيين باثنين وثلاثين سنة . فبين ضــمن ملاحظاته أن الأتراك كانوا هم الطبقة الحاكمة الا انهم

كانوا محتفظين بلغتهم التركية . وقال أن المصــريين أفضل منهم في حسن المعاشرة .

وشــهدت القاهرة نشــاطا دينيا فلقد شــاعت الطــريقة البكتاشــية (الباشــية) وهى طــريقة الدراويش وقد كانوا منتشــرين بالقاهرة بشــكل ملحوظ بملابســهم الغريبة . فكانوا يرتدون جلود النمور والأســود وأحزمة من جلد الثعابين ويضعون ريشــا ملونا فوق رؤوســهم .

وكان بالقاهرة قنصــل لفرنســا وقنصــل للبونانيين .. وكانت قنصــلية فرنســا تؤجر من فرنسا لمن يدفع أكثر . وكان التجار الفرنســيون يرشــون الوالى العثمانى حتى لا يقبل تعيين قنصــل لهم لا يريدونه وبوافق على القنصــل الذى يرشــحونه له . وغيرت الحكومة الفرنســية طريقة تعيين قنصلها بالقاهرة عام ١٦٨١ فجعلت القنصــل موظفا لا يشــتغل بالتجارة وكان يتبع الســفير الفرنسى بالآستانة . وقد حصل التجار الفرنسيون على امتيازات جمركية من الباب العالى بتخفيض الجمارك لهم من ١٠٪ ببولاق و ٢٠٪ بالاسكندرية لتكون ٣٪ فقط .

وكان الوالى فى القرن ١٦ حاكم ولاية مصــر التى كانت اكبر الولايات العثمانية وكانت له ســلطات مطلقة حتى أصــبح يعين بالرشوة فى الباب العالى . وكانت وظيفته عقد الاجتماعات بالديوان بالقلعة وحضــور الاحتفالات الدينية واحتفال وفاء النيل وارسال الصرة بالآستانة ودوران المحمل .

وفى القرن ١٨ فى عصــر المماليك البكوات كانت الخرائب تحيط بالقاهرة وكان بها أحواش متناثرة يعيش فيها الأهالى وسط المزارع والنخيل . وكانت بولاق ميناء تجاريا بها الشون والوكالات

وبعض البيوت والحمامات والأسـواق وجبانة . وكان يصـلها بالمقس (باب الحديد) طريق على جانبيه البرك والمسـتنقعات وعلى جانبيه توجد بعض الحوانيت والمقاهى . وكانت الأزبكيـة تضـم الأفرنج ويعبر اليها بواسـط قنطرة . وكان شـارع الموسكى ينتهى عند حى الأفرنج الثانى على الخليج وكان يطلق عليه خط الفرنسـاوية وبه كان بيت القنصـل الفرنسى ويطل على الخليج . وكان للمماليك بيوت حول بركة الأزبكيـة وكانت السـيول تداهم القاهرة من جبل المقطم أثناء المطر وكانت تغمر المنطقة التى حول بابى الفتح والنصر وجامع الحاكم بأمر الله .

وكانت منطقة باب اللوق عبـارة عن برك ومسـتنقعات وبجانبها جبانة وشـرقها حدائق كانت للتنزه وبعد الجبانة كان حى السـيدة زينب وكانت المسـاكن قد بنيت به فوق انحدار جبل يشـكر . وكانت القلعة امامها ميدان (قرة ميدان) المتد حتى جامع ابن طولون بالرميلة . وكانت القلعة مهملة وتداعت اسوارها وكانت مقر سكن الباشا والحامية الانكشارية .

أما مصـر العتيقة التى تضـم الفسـطاط تركزت البيوت بها حول جامع عمرو وعلى النيل وفى غربها اقام المماليك قصورهم واصـبح بين الفسـطاط والقاهرة خرائب مهدمة .

وكان بالقاهرة المذابح السـلطانية على أطرافها وكان يذبح فيها الذبائح وتحصـل عليها الرسـوم المقررة على كل ذبيحة وكان شـرب الخمر أيام الجبرتى شـائعا وتدخين الحشيش سـائدا فى كل بيت وشـارع وحارة حتى النسـوة كن يدخن الحشيش فى المشـربيات بلا حياء وهن يتطلعن للمارة .

وكان هم الباب العالى من مصـر صـرة الأموال والخراج . فلما تحايل ابراهيم بك شـيخ البلد ونائبه مراد بك عام ١٧٨٦

ولم يدفعوا الأموال السـلطنة . مما جعل الآسـتانة ترسل رسلا للقلعة ومعهم مـكاتبات قرئت وفيهـا كما يقول الجبرتى : طلب الخزائن المنكسـرة (عدم دفع الأموال) وتشـهيل مرتبـات الحرمين (الصـرة الحجازية) من الغلال والصـرر . وأعطى الخطاب مهلة ثلاثين يوما .

وكان أمير الحج المصـرى الأمير مصطفى بك قد منع زيارة الحجاج المصـريين للمدينة عام ١٧٨٥ لأنه نهب عوائد العربان هناك . وطلب منه دفع هذه الأتاوات فرفض . فأخذ عليه شـريف مكة اقرارا بأن المماليك بمصـر لم يوفوه أموال المدينـة وكتب محضـرا بخطه ووضـع عليه خاتمه . ولما عاد أمير الحج وبخه ابراهيم بك ومراد بك لأنه تسـلم جميع الأموال قائلين له : فضـحتنا فى مصـر والحجاز وفى الشـام والروم وجميـع الدنيا) .

فلما أتى اغا السـلطان برسـالته قال له مراد بك : (ليس لكم عندنا الا حسـاب . بعدها طلب مهلة شـهر رمضـان والا (فلا نشـهد حجا ولا صـرة ولا ندفع شيئا) . وكان الموقف متأزما وخشى المماليك من الباب العالى . فطلب ابراهيم بك شيخ من الأمراء كتابة العرضحالات يعلنون فيها : انهم تابوا واقلعوا ورجعوا عن المخالفة والظلم والطريق التى ارتكبوها . وسـلمت للأغا لحملها للباب العالى . وكانت هذه مناورة مفضـوحة لتضييع الوقت .

فجاء الاسـطول العثمانى لدمياط والاسكندرية بقيادة حسن باشـا قبطان . وتوجس أمراء المماليك خيفة فاجتمعـوا بالوالى بالقلعة ومعهم شـيوخ الأزهر . وقدم أمراء المماليك له عرضحالات أعلنوا فيها توبتهم . وقبل مراد بك ركبة الباشا قائلا : ياسلطانهم .

نحن فى عرضك لتسكين هذا الأمر ودفعه عنا . ونقوم بما علينا ونرتب الأمور وننظم الأحوال على القوانين القديمة . قال له الوالى : من يضمنكم ويتكفل بكم ؟

قال مراد بك : أنا الضامن .

الا أن المماليك هم المماليك فبعد اعلانهم توبتهم بيومين عاثوا بالقاهرة نهبا وسلبا . ونهبوا القرى والفلاحين . وهذا ما جعل حسن باشا قبطان يرسل منشوراته لمشايخ البلاد والعربان بأنه سيطبق قانون نامة الذى وضعه السلطان سليمان لمصر من قبل . وفرح الناس وهم لا يعرفون شيئا عن هذا القانون المهم رفع الظلم والمظالم والمغارم عنهم . وهذا يذكرنا بمنشورات نابليون عام ١٧٩٨ .

واعلن المماليك بزعامة مراد بك التمرد والعصيان واعلنوا الحرب ضد جيش السلطان وأخذوا أموالهم ورخص القمح بأسواق القاهرة بعد غلائه الفاحش ، لأن المماليك تخلصوا من المخزون فى مخازنهم بسرعة . لكن مراد هزم عند فوة وعاد خائبا مهزوما الى القاهرة . ودخلها حسن باشا قبطان بعدما فر منها مراد ومماليكه . وأصدر تنظيمات شكلية خاصة بالملابس والتفتيش وحصر أملاك المماليك . وكان العساكر قد كثر تعديهم على الحرفيين فيقول الجبرتى : كثر تعدى العساكر على أهل الحرف كالقهوجية والحمامية والمزينين والخياطين وغيرهم . ويقلع العسكرى سلاحه ويعلقه . وكأنه صيره شريكه وفى

حمايته · ويذهب حيث شاء أو يجلس متى شـاء · ثم يحاسـبه ويقاسـمه فى المكسـب وهذه عادتهم اذا ملكوا بلدة ذهب كل ذى حرفة الى حرفته التى كان يحترفها فى بلده ويشـارك البلدى فيها) . فالعسـاكر العثمانية شـاركوا أصـحاب كل حرفة فى حرفته فكان مجىء هذه التجريدة وبالا على القاهرة لأن عساكرها كانوا نهابة يعطلون الطرق على المارة وينهبون الحوانيت والأسواق وظلت البلاد حتى بعد عودة حسن باشا قبطان للآسـتانة فى هذه الفوضى والعبث والظلم لأن المماليك عادوا للقاهرة بعدها أشد قسـوة وظلما حتى جاء نابليون عام ١٧٩٨ م وهذه قصة اخرى .

(١٧)

الـى أيـن ؟

مع مجيىء نابليون والحملة الفرنسـية لمصـر اصـبحت القاهرة عاصـمة فرنسية ولم يعد للولاة العثمانيين وأمراء المماليك وجود . وأصـبح نابليون يحكم من قصـر الأزبكية بعدما أصبحت القلعة ترسـانة حربية لمدافع الفرنسـيين المصـوبة نحو المدينة القائمة تحتها . واحس المصـريون بأن هناك فرقا بين نهب العسـاكر الأتراك والمماليك للأسـواق وبين الفرنسـيين الذين يدفعون ثمن ما يشـرونه . واصبحت البلاد تحكم بقوانين . الا أن القـاهرة كان بها طابور خامس من فلول المماليك والعثمانيين الذين كانوا يحـركون الفتن ويؤلبون الراى العام خفية ضـد الفرنسيين .

وكانت القاهرة فى نظر الفرنسـيين مدينة من مدن العصور الوسـطى التى ظلت محافظة على هيئتها وتخلفها واسـلوب الحياة بها وشـعر اهلها أنهم امام بشـر لهم نظامهم واسـلوب حياتهم . وهم غـير المماليك والأتراك والانكشـارية الهمج . فحياتهم ومعاملاتهم بنظام وقواعد واصـول .

وحاول نابليون تحديث القاهرة وانتشـــالها من جب الاهمال والتخلف الحضـــارى . لكن الحق يقال أن شـــعبها له ســـماته الخاصـــة فنرى الرحالة الفرنسى دى مونكوتى عندما زار مصـــر عـــام ١٦٤٦ كان يجيد العـــربية . فوصـــف المصريين بأنهـــم لا يحملون ضـــغينة لأحد وليس لديهم رغبة فى الانتقام وتنتهى الخلافات بينهم بانتهاء اليوم ويحرصـــون على تنفيـذ العـدالة وأحكام القضـــاء . فالمصـــريون كما قال نابليون أمة وديعة تحافظ على كبريائها .

وكان للاجراءات التخطيطية لشـــوارع وحارات القاهرة الهدف منه أيام الفرنسيين الحد من انتشـــار الأوبئة والأمراض المعدية . فاتخذت عدة اجراءات من بينها كنس ورش الشـــوارع ونقل الزبالة بها وهدم بعض الحارات وازالة البوابات بها وأجبرت البيوت لتعريض المفروشـــات والأثاثات فى الشمس مع تبخيرها فى أعقاب أى مريض بالطاعون أو أى مرض معد وخصص أطباء الحملة الفرنســـية بالكشـــف على المرضى الذين يوجب الابلاغ عنهم للســـلطات وهذه الاجراءات كانت تضايق المصريين .

والقاهرة ابان الحملة الفرنســـية قد وصـــــفها الرحالة (وليام ويتمان) وصفا دقيقا فكانت البيوت مبنية فى الدور الأرضى بالحجر وفوق طابق من الخشـــب وأرضـــية البيت بها بلاط ووجد فى ســـوق العبيد الزنوج فى بناية عبارة عن فناء حوله مبان من دورين به حجرات . وفى ســـوق الرقيق الأبيض كانت بناياتهم أفضـــل وأنظف . وكان السوقان شبه خاويين .

وكان ثمة شـــارع طويل يبدأ من باب النصـــر وعلى جانبيه الحوانيت وبه مقـــاه ويصـــل الى قلب القاهرة . وكل مقهى كان بها شـــاعر الربابة يروى الســـير الشـــعبية . وكـــان الناس يسيرون فى الشـــوارع ووجوههم شـــاحبة من ســـوء التغذية .

وكان الباعة الجائلون ينادون على بضـاعتهم باسـلوب فكاهى مرح .

وابان حكم محمد على اهتم المسئولون عن القاهرة بالأسواق وكان المحتسـب يراقبها وأمر الكخيا (محافظ القاهرة) بكنس الشـوارع والتخلص من الزبالة وردم البرك والمسـتنقعات ولاسيما فى غرب المدينة . كما ردمت القناة التى كانت توصـل الماء لبركة الازبكية أثناء الفيضـان وركز كخيا القاهرة على توسيع الشـوارع وازالة المصـاطب أمام البيوت والاشغالات من أمام الحوانيت وبالأسـواق . واوصـلت القلعة بالازبكية بشـارع وسـعه الخديوى اسماعيل فيما بعد وأطلق عليه شـارع محمد على وجعله يأخذ طابعا فرنسـيا بالبوائك .

وقام محمد على باقامة قصـره الشـهير بشـبرا مع اقامة عدة قصـور على النيل بين بولاق والقصـر العينى حيث بنى هناك مستشفاه كما أقام له قصـرا بالأزبكية وجدد القلعة وبنى بها جامعه وقصـره بعد ما هدم منشآت المماليك بها واقام ثكنات لجنوده ومصـنع البارود ودار الضـربخانة . واهتم بميناء بولاق وجعل ميناء الفسـطاط مخازن للبضـائع ورغم هذا كله الا أن القاهرة لم تتسع فى عهده .

والقاهرة الحديثة يرجع للخديوى اسـماعيل الفضـل فى انشـائها وكان يطلق عليها باريس الشـرق . لأنه اسـتدعى (هوسمان) خبير التخطيط الفرنسى الذى خطط باريس الجديدة بفرنسـا . وطلب منه الخـديوى نقل الحى الجـديد بباريس وتخطيطها الذى وضـعه فوق غرب القـاهرة على النيل وقـام الخديوى اسماعيل بربط القاهرة بالاسـكندرية وبالسـويس بالسكك الحديدية عام ١٨٥٤ وأقام شركتا المياه والغاز لمد شبكات المياه النقية والغاز للبيوت وانارة الشـوارع بغاز الاستصباح .

وكانت التغييرات الطوبغرافية التى قــام بها الخديوى اســماعيل بمعاونة الخبير (هوسمان) تغيرات جوهرية فى شـــكل العاصمة ولاسيما المناطق التى كانت على النيل . لأن التغييرات فى قلب العاصمة القديمة كانت هامشــية الى حد ما حيث شـــق طريق الســكة الجديدة كامتداد لشــارع الموسكى شـــرق شـــارع الخليج المصـــرى (بورسعيد حاليا) وهذا الشـــارع ربط العتبة بميدان الحســين . كما أنشىء شــارع كلوت بك وجعل البيوت على جانبيه ببوائك اســوة بالطراز الفرنسى . واقيم ميدان جامع ابن طولون وازيلت العشش والأكواخ والمبانى حول مســجدى الرفاعى والســلطان حسن فظهر روعة جمالهما ولاســيما وان شــارع محمد على كان يبدأ بهما وقام اسماعيل بتوســعة الشارع وأقام على جانبيه بيوتا ببوائك على الطراز الفرنسى بباريس .

الا ان اعادة تخطيط القاهرة أيام محمد على او الخــديوى اسماعيل قد ازال الكثير من الآثار الاســلامية ولاسيما المملوكية . وهذا ما حدث بعد ردم الخليج المصــرى وانشـــاء شـــارعه وانشــاء الســكة الجديدة وانشاء شــارع الأزهر ليكون امتدادا من العتبة للجامع . كما أن انشـــاء شـــارع (الجيش) لربط العباســية بالعتبة قد هدم بيوتا وآثارا مملوكية وقصــورا كانت تعتبر تحفا معمارية . وكان الأجانب يشترون المشربيات كاملة . واقتلعت فى هذه التوســعات أشــجار وحدائق . أما قاهرة اليوم فلقد أصبحت نســيجا متشــابكا من الشــوارع والضواحى والامتداد العمرانى وخرجت من الشــريط الضــيق من الجبل الى النهر فى شــكل عمرانى منســق أو شكل عشــوائى يخنق هذه المدينة التى أصبحت تعانى النشــاز العمرانى الذى قضى على الأخضــر واليابس حتى ضــاقت القاهرة بمن فيها وضـــاق من فيها بها .. لكن ستظل هذه المدينة الخالدة بسحر الشرق درة فى جبين الزمن .

الملاحـــق

(عن تخطيط المدن والعمارة
والزخارف والفنون والتصاوير الاسلامية)

التخطيط العمرانى .. والعمـارة الاسلامية(١)

تعتبر يثرب أول مدينة اسـلامية وضع الرسـول (صلى الله عليه وسلم) أسس تخطيطها . لهذا أطلق عليها المسلمون مدينة النبى أو المدينة المنورة . وهذه التسمية اشارة الى النظرة الحضرية التى دعا اليها الاسلام عندما جعل الرسول المدينة أول عاصمة له .

وعندما خطط الرسـول مدينته جعلها أساسا للتخطيط العموانى للمدن الاسلامية والمجتمعات العمرانية الاسلامية الجديدة فى الأمصار والمدن التى بنيت ابان الفتوحات الاسلامية الكبرى ، لأنه جعل المدينة المنورة تقوم على التآخى بين المهاجرين والأنصار ، ولم يجعل القبلية مظهراً محدداً داخل المجتمع الاسلامى الجديد . نكان يطلق على الجماعات بها أسماء غير قبلية كأهل قباء ، وأهل الطائف ، وأهل مكة ، وأهل المدينة .

وفى الأرض الموات التى اختيرت لبناء مسجده الذى بركت فيه ناقته المأمورة جعلها لسكنى المهاجرين ، وجعل الشوارع الرئيسية بها من حول مسجده تمتد منه الى أطراف المدبنة الجديدة لتتفرع منها الشوارع الفرعية والجانبية بداخل الخطط ، وكان

---

(١) مقال للكاتب بمجلة (منبر الاسلام) .

عرض الطريق الرئيسى عشـــرة اذرع ، والفرعى خمسة اذرع ، ولدواعى الأمن ولاسيما عندما حوصـــرت المدينة فى غزوة الأحزاب حفر خندقا فى المناطق المكشـــوفة والتى لا تحدها الجبال حتى لا يجتازها العدو ويداهم المســـلمين المتخندقين بالمدينة . وجعل الرســـول معســـكرات الجند خارجها ، وحدد — ايضا — مكانا للذبح والســـلخ بعيدا عن البيوت ، وجعل بكل الخطط دور الخلاء للحفاظ على نظافة المدينة ، وشـــيد بالمسجد خيمة جعلها مستشفى لأن المســـجد مكان معروف يســـهل للجرحى والمصابين والمرضى الوصـــول اليه .

وبنظرة شـــاملة على المدينة فى عهد المصطفى (صـــلى الله عليه وسلم) ، نجد أن لها مصـــدرا للمياه وهو بئر رومة الذى اشـــتراه عثمان بن عفان من يهودى وتبرع به للمســـلمين عملا بما دعا اليه النبى (صلى الله عليه وسلم) . ليأخذوا منه حاجتهم من الماء بدون مقابل ، وكان هذا أول وقف فى الاســـلام ثم جعل الاســـواق خارج البيوت وعلى أطرافها حتى تظل مدينته مركزا ســـياسيا ودينيا واداريا . واختياره لمســـجده فى الأرض الموات التى بركت فيه ناقته عندما قال بأنها مأمورة واراد (صلى الله عليه وسلم) أن يحييها ، لهذا اقطع المهاجرين حول مسجده ، فقسمها الى خطط وقطائع ليعمروها ، وجمع فى كل قطعة ذوى القربى ليقســـموها فيما بينهم . وهذا التخطيط العمرانى لم يكن معروفا فى الجاهلية عند العرب .

ولما حدد الرسول ســـوق المدينة قال **هذا ســـوقكم فلا يضيق ولا يؤخذ فيه خراج** ، وكان يمر به لمراقبة ســـير العمل فيه ، والوقوف على التزام المعاملات الاســـلامية فى البيع والشراء وعين ســـعد بن أبى وقاص عاملا عليه ، وجعل الســـوق مفتوحا من كل الجهات .

المدن الجديدة فى الاسلام

كان المسلمون فى عصر الرسول وصدر الاسلام منشغلين بالفتوحات ونشر الاسلام شرقا وغربا ، ولم يعيروا العمران اهتماما ، لهذا كانت الدور فى المدن الجديدة صغيرة ، وتفى بالغرض للسكنى ، حتى نرى الخليفة عمر بن الخطاب لما بلغه أن خارجة بن حذافة بنى له غرفة علوية بداره فى مدينة الفسطاط أرسل الى واليه عمرو بن العاص رسالة قال فيها :

« بلغنى أن خارجة بن حذافة شيد غرفة ولقد أراد خارجة أن يطلع على عورات جيرانه ، فاذا أتاك كتابى هذا فاهدمها ، ان شاء الله والسلام » .

لهذا كانت المساجد والدور التى انشئت فى صدر الاسلام بالمدن الجديدة لأنها فى الأصل كانت معسكرات لجند المسلمين (سواء فى البصرة أو الكوفة أو الفسطاط) — لا تبنى الا من دور واحد ولا يعلو بها بناء حتى لا يكشف من أمر الآخرين وعوارتهم . واصبح هذا مبدأ ثابتا فى الفقه الاسلامى ، وهو مهما تطاول البنيان وارتفع يجب الا يكشف الجار ولا يجور عليه بكشف عورات الآخرين ، وهذا حق من حقوق الجيرة متفق عليه بين جمهور الفقهاء وحق للجار على جاره .

ومن الآداب الاسلامية عندما أرتفعت المآذن واصبحت تطل على الجيران كان يختار لها المؤذنون من العميان ضمانا لدرء أى شبهة من نظرة واحدة لداخل البيوت التى تقع فى مدى الرؤية أو بالنظر من المئذنة .

ومن ثم نجد أن المدن الاسلامية قامت على نمط مدينة الرسول ، ومنها : مدن البصـــرة والكوفه والفســـطاط والعســـكر والقطائع والقيروان وبغداد والقاهره .. وكلها اقيمت وشـــيدت فى ظلال الاســـلام ، فقســـمت أرضـــيها الى خطط ، وهذه الخطط قسمت الى قطائع . وكان بكل خطة مســـجد ومقبرة ماعدا مدينة الرسول فقد جعل البقيع مدفنا جماعيا لكل المســـلمين وقســـمه ليكون لكل قبيلة به جزء تدفن فيه موتاها .

ولقد اهتم الاســـــلام بالتمدن وازدهار المدن كما يقـــول (لومبارد) ، وهذا — أيضا — ما أكده (بنيت) بقوله بأن الاسلام دين تمدن ، لهذا كان المســـلمون يتمســـكون بأحكام دينهم عند انشـــائهم للمدن الاسلامية .

المفهـــوم الاســـلامى المدينـــة

صـــنف أصـــحاب المســـالك والجغرافيون العـــرب المدن تصنيفا اصطلحوا عليه وجعلوا المدن مدنا كبيرة أو وســـــطا أو صـــغيرة .. فاذا كانت المدينة عامرة أطلقوا عليها قصـــبة وكانت القصـــبة تطلق — أيضا — على عاصـــمة الولاية أو الاقليم ، وفى كتابات البعض منهم كانوا يطلقون على المدن كلمة بلد أو بلدة عظيمة أو بليدة أو بلد صغير حسب حجم المدينة .

وكلمة مدينة أصـــلها كلمة آرامية معناها (دين) لأن الديان هو القاضى وكلمة مدينتا بالآرامية معناها القضـــاء فلذلك يقال على المدن بالشـــام قضـــاء مثل قضـــاء حلب أو دمشق .

وحدد الفقهاء المســـلمون شـــكل المدينة ومواصفاتها فبينوا انها المصـــر التى عليها ملوك أو حكام ، لهذا قصـــر ابو حنيفة

صــلاة الجمعة على الأمصـــــار (المدن) ولم يجز اقامتها فى القـــرى .

***

ووضـــع الفقه الاســـلامى احكام البناء والعمران بالتفصيل الواضـــح والذى لا لبس فيه . وكان القضـــــاة يطبقون هذه الأحكام التى كان الحكام ونوابهم يلتزمون بتنفيذها ، وهذه الأحكام وضـــعت ملامح المدينة الاســـلامية عند تخطيطها أو بناء مساجدها وعمائرها .

***

أما الجغرافيون العرب فاعتبروا المدينة يتميزها بســـورها الذى يحصـــنها وبها المساجد والأســـواق والحانات والحمامات ومراكض الخيل ومعامل الابل ومرابض الغنم واقامة الصـــناعات والمهن ، ويكون لها مصـــادر مياه ثابتة ، وكلها أشـــياء وضعت لتكون أسسا لاقامة المدينة الاســـلامية .

واهتم الجغرافيون والمؤرخون المســـلمون بتاريخ البلدان وخطط المدن وآثارها ، وكانت كتاباتهم حول هذه الموضـــوعات ثبتا تراثيا القى الضـــوء على وصـــف الكثير من العمائر والقصور والتى اندثرت مع الزمن ، الا أن هذه الكتابات أمدتنا بالتفصـــيلات والمعلومات عن الطرز المعمارية التى ســـادت فى ديار الاســـلام والامتداد العمرانى للمدن الاسلامية .

وفى الأدب العربى ظهر أدب الفضـــائل وهو لون من الوان الأدب الوصـــفى الذى كان يصـــف محاســـن القبائل وضروبها ، ولما ســـكن العرب المدن بعد الاســـلام أصـــبح أدب الفضـــائل يضم محاسن المدن وطبائع ســـكانها ، وكثير من كتب الفضـــائل تناولت فضـــائل مكة والمدينة والقدس وغيرها من المدن الاسلامية التاريخية ، وفى اللغة العربية نجد أن كلمة العرصة هى البقعة

الفضـــاء ، والخرق وهو البلد الواسع التى تنضغط فيه الريح ، والفسطاط معناها المدينة الجامعة .

وكان المسلمون ينشئون المدن على طرق القوافل الرئيسية ، فالموصـــل كانت تقع على مفترق الطرق وتصـــلها ببعض ، وكانت تعتبر بوابة المشـــرق الاســـلامى . والبصـــرة أقيمت لغرض عســـكرى حيث كانت قاعدة لجند المســـلمين ينطلقون منها لفارس للقيام بالفتوحات الاســـلامية ، وكانت مدينة الفســـطاط بمصـــر معسكرا لجند المسلمين ينطلقون منها لفتوحات شمالى أفريقيا .

والقرآن اشـــار الى المدينة والقرية . فالمدينة هى البلد الذى كان عليه حكام وملوك كما يقول الفقهاء . وقصـــر بعضـــهم اقامة صـــلاة الجمعة على الأمصـــار (المدن) ولم يجيزوا اقامتها فى القرى لأن المصـــر هو المكان الذى يوجد به الســـلطان أو نائبه ليقيم الحدود ، وبه القاضى الذى ينفذ الأحكام ، لهذا أطلق على الولاة أمراء الصلاة .

ووضـــع عمر بن الخطاب شـــروطا لبناء المدن أهمها الا يكون بينها وبين المدينة المنورة موانع مائية ليســـهل الاتصـــال بها برا ونجدتها اذا لزم الأمر .

وأطلق الفقهاء على الشـــوارع الرئيســـية بالمدن طرق الســـابلة أو الطرق النافذة . ومنعوا تضـــييقها بالبناء أو التعدى عليها بالاشـــغالات حتى لا يعوق هذا المرور ، ووضـــعوا أساسا لبناء الصـــناعات المقلقة للراحة أو الســـكنى فمنعوا اقامة المصانع التى تصـــدر أصـــواتا مزعجة أو تطلق روائح كريهة كمصانع الجير أو الفخار ، فاشـــترطوا انشـــاءها خـــارج المدن وعند أطرافها ، ولو امتد العمران تظل قائمة لأن المضرور دخل عليهـــا وكان يمكنه تجنبها ، لهذا أبطلوا حق ازالتها .

ملامح العمـــارة الاســـلامية

كانت بداية ظهور الفنون المعمارية الاســـلامية فى العصرين الأموى والعباسى . وكانت دمشق العاصـــمة الأموية ، وبغداد العاصـــمة العباســـية . وكانت دمشـــق قبل الفتح الاســـلامى حاضـــرة الشـــام أيام البيزنطيين ، وكانت بها العمائر والأسواق ، وكانت عمائر الشـــام عالية ، وهذا ما جعل أمراء بنى أمية يشيدون المســـاجد بارتفاعات عالية ، فشـــيدوا الجامع الأموى بدمشق ، وجامع حلب ، وقبة الصـــخرة ببيت المقدس كمبان عالية ، علاوة على قصـــورهم ببادية الشـــام ، وكلها تعتبر حاليا من روائع العمارة الاســـلامية .

والعمارة الاســـلامية تقسم حاليا حســـب العصور التاريخية التى شـــيدت فيها ، فيقال العمارة الأموية أو العباســـية أو الفاطمية أو السلجوقية أو العثمانية أو الاندلســـية أو المملوكية أو المغولية .

فكان الأمويون مولعين بالحفر فى الحجارة التى كانت توضع على واجهات القصـــور والمبانى ، وكان الحفر يأخذ اشـــكالا هندســـية وزخرفية لزهـــرة اللوتس ، أو كيزان العنب ، أو التوريق مع زخرفة الواجهات بالفسيفساء الملونة أو الزجاجية فى شـــكل مكعبات ملونة ، وتطعم بالصـــدف لتعطى بريقا وضوءا . لهذا بطنت قبة الصـــخرة بالفسيفساء الملونة وعليها رســـومات وأوراق اشـــجار وفروع نباتات واشـــكال الفواكه وكيزان الصنوبر وعناقيد العنب مع رســـوم الأهلة والنجوم .

وفى العصـــر العباسى كانت المبانى تبنى بالطوب اللبن ، وادخل الرشـــيد لأول مرة الآجر فى بناء ســـور مدينة بغداد ،

ولما بنيت مدينة ســـامراء كان بناؤها بالآجر وبنى به جامعها الشهير بمئذنته الملوية والتى ســـلمها خارجها كعادة أهل بابل عند بنائهم ابراجهم ، وتعتبر هذه المئذنة وشقيقتها مئذنة جامع ابن طولون بالقاهرة نموذجين فريدين فى العمارة الاسلامية .

والفاطميون أول من أدخلوا بناء المقرنصـــات على حواف المبانى ، ونراها فى جامعى الأزهر والجيوشى بالقاهرة . وهم أول من ادخلوا بناء القباب فوق الأضـــرحة والجوامع فى مصـــر ، لهذا نرى جامع الحاكم بأمر الله له قبة كبيرة .

والعثمانيون أدخلوا الطراز المســـلجوقى التركى فى بناء المساجد فى البلقان والأناضـــول ، وتتميز الجوامع العثمانية بالقبة الكبيرة التى تحيط بها قباب صـــغيرة ماعدا ناحية القبلة ، وهذا ما جعل محمد على يبنى جامعه بالقلعة على الطـراز العثمـــانى المميز .

وفى الهند نرى عمائر المغول المســـلمين ومن بينها جامع (شاه جيهان) بتاتا بالهند ، وقد بنى عام ١٠٥٧ هـ ، وهو صورة طبق الأصـــل من المســـجد الأقصى ، وصمم بحيث يتردد فيه صـــدى صـــوت الخطيب بصـــوت عال أثناء القائه خطبة الجمعة ليســـهل ســـماعه . وضـــريح وجامع تاج محل يعتبر من روائع العمارة الاســـــلامية بزخارفه القرآنية ومآذنه وواجهته الملونة وزخارف الآيات القرآنية وأســـماء الله الحسنى على ضريح تاج محل .

وفى آســـيا الوســـطى أطلق علماء العمارة على عماراتها الاســـلامية الأرابيســـك لأنها تتســـم بالزخرفة على واجهـــات الجدران مع التحلى بالخطوط العربية ولاســـيما الخط الكوفى ،

ويصاحب العمارة هناك القباب المزخرفة والمضلعة والمآذن السامقة علوا ورشاقة كالنخيل عندما تشق عنان السماء .
وهذه الحضارة تجسد عظمة الاسلام هناك .

والعمارة الاسلامية من الموضوعات التى استهوت الكثيرين ممن يعنون بدراسة فنون العمارة ، لهذا أصدروا كتبا ومجلدات اظهروا فيها النواحى الجمالية والأسس المعمارية والقواعد الهندسية التى أقيمت على أسسها الطرز الاسلامية بشكل موسع لأن العمارة الاسلامية لها فلسفة جمالية تحقق من خلالها الوحدة الفنية التى ترتبط بتعاليم الاسلام ، وهذا ما نراه جليا فى شتى صورها المتعددة واشكالها المميزة ، واعتبر المعماريون العالميون ان الفن المعمارى الاسلامى من اطول الفنون المعمارية عمرا لأنها لاتزال سائدة حتى اليوم لأكثر من أربعة عشر قرنا .

ولأن المدارس والدكاكين والفنادق والحمامات والنزل والبيمارستانات والخانات على الطرق والتكايا والاسبلة فى الشوارع كانت واجهاتها ضخمة وزخارفها فخمة ، ومما ساعد على هذا تطور الزخارف الجصية ، واستعمال أساليب غير عادية فى الزخرفة حتى أصبحت هذه العمارة شائعة فى الثلاث قارات آسيا وافريقيا واوروبا .

وتمتاز الزخارف والأشكال الزخرفية بالمساجد بابراز بعض أجزاء المبنى لكنها لا تؤدى أو تحقق غرضا دينيا كالرسومات فى الكنائس أو المعابد ، لأن الاسلام نقى خالص من الاشارة اليه ، بالصور والرسوم ، ولذلك لا تتعدى هذه الزخارف الكتابات القرآنية واسماء الله الحسنى وزخرفة نباتية وتسجيل اسم منشىء المسجد او بانيه وتاريخ البناء .

والعمارة الاســـلامية من الأندلس غربا حتى أندونيسيا شرقا لغتها التعبيرية واحدة والتى تتفق مع روح الاسلام . وهذا ما يطلق عليه الذوق الجمالى ، الذى يتضـــح لنا فى اشـــكال القباب والســـقوف والمآذن وابواب المســـاجد والأعمدة الداخلية بالأروقة وتيجانها وعقودها ومقرنصـــاتها . والزخارف الهندسية الاسلامية تتســـم بالتناظر مع تجنب تصـــوير الانســـان أو الحيوان ، لهذا يسهـــل للناظر التعرف عـــلى الحضـــارة الاســـلامية وتمييزهـــا بسهولة ، ولاسيما فى الدول التى فتحها الاســـلام وكانت العمائر تســـودها . فاختيرت النماذج الاســـلامية فى العمارة والزخرفة لتميز العمائر الاســـلامية عن غيرها من العمائر ســـواء فى مصر والشـــام وتركيا والأندلس وفارس والهند .

لهذا ظهرت الطرز المعمارية الاســـلامية التى يســـهل تمييز عمائرها من بين العمائر التراثية بهذه البلدان والتى اقيمت بها قبل الفتح الاسلامى ، فالملامـــح الاســـلامية تراهـــا خير شـــاهد على عظمة الحضـــارة الاســـلامية ، وبصماتها دامغة لا لبس فيها ولا غموض ، وهذا ثبت حضـــارى لا يمارى فيه ..

تخطيط المدينـــة الاسلاميـــة(١)

فى هذا المقال القى الضـــوء على المدن الاســـلامية التى نشأت وازدهرت فى ظلال الاســـلام . لان المســـلمين كانوا يسترشدون بقواعد دينهم عند انشـــائهم للمدن وحـــدد الفقهاء مواصـــفات اختيار وشـــكل المدينة الاســـلامية ووضـــعوا مواصـــفات خاصـــة بالبناء والعمران بالمدن . وكان القضـــاة يراعونها فى احكامهم ، وكان الحكام ونوابهم ملتزمين بتنفيذ هذه الاحكام والقواعد التى راعت الحفاظ على ملامح وشـــكل المدينة الاســـلامية وهذا ما سأتناوله بالتفصـــيل فيما بعد .

والقرآن قد اشـــار الى المدينة والقرية . فالمدينة هى البلد الذى عليه حكام ينفذون الأحكام وقصـــر بعض الفقهاء اقامة صلاة الجمعة على الأمصـــار (المدن) ، ولم يجيزوا اقامتها فى القرى ، لان المصـــر هو البلد الذى يوجد فيه أمير أو وال مقيم للحدود ، وبه القاضى الذى يصـــدر الأحكام ويتابع تنفيذها . لهذا كان يطلق على الولاة فى الأمصار ائمة الصلاة .

ملامح اختيـــار المدن

المدينة هى المصـــر وجمعها الأمصـــار . والمدينة الاسلامية تتميز بســـــورها الذى يحصـــــنها وهذا لتحقيق الأمن والأمان

(١) مقال للكاتب بمجلة (منبر الاسلام) .

لســـاكنها . ويوحد بالمدينة السلطة الادارية والقضائية والأسواق والمرافق العامة كمصـــادر المياه ، والمؤن ، والحمامات ، والطرق ، والمســـاجد الجامعة .

وبين الفقهاء أن العمران وتكثير العمارة من أركان الملك ، ووضـــعوا شروطا فقهية لاختيار موقع المدينة ، من بينها وجود مصـــادر المياه ، وســـعة المكـــان ، ووجود الميرة ، والقرب من المراعى ، واعتدال جو المكان المختار ، وتحصين المنازل .

وبين الشـــارع وجـــوب التزام الحـــاكم بتوفير المياه لها ، وتقدير طرقها ولاسيما الطرق النافذة (الرئيســـية) ومنع تضييقها بالتعـــدى عليها بالبناء أو الاشـــغالات ، حتى لا يعاق المرور بها . كما انه على الحاكم بناء المســـجد الجامع فى وســـطها وملتقى طرقها ، وتقدير اســـواقها ، وأن ينقل اليها العلماء والصـــناع ، كما يميز فى ســـكناها فلا يجمع القبائل الأضداد معا .

ووضـــع الخليفة عمر بن الحطاب شـــروطا عامة لبناء المدن الاســـلامية فى عهده أهمها ألا يكون بينها وبين المدينـــة المنـــورة عاصـــمة الخلافة اى موانع مائية ليســـهل نجدتها ، أو الاتصال بها عند الشدة أو الحصار .

وكانت المدن الاســـلامية تفى بهذه الأغراض ولاسيما فى البصـــرة والكوفة والفســـطاط والقيروان والقطائع وواســـط . وكان ينشأ بالمدن القصـــبات والقلاع ليعيش فيها الوالى لتأمينة .

وكانت المدينة تقســـم الى قطائع وأحياء ســـكنية وكانت المســـاجد تتوزع على خططها . وكانت كل قبيلة فى جنود الفتح تقســـم خططها فيما بينها ، ولها بها مقبرتها ومسجدها . وكانت الاســـواق تقام اســـبوعيا خارج المدن للتخفيف من الزحام بها .

شــروط فقهية لانشـاء المدن

تناول الفقهاء فى كتب الحسـبة احكام البناء والعمارة فى المدن ، فأوجبوا بناء المسـاجد والأربطة والحصـون للدفاع عن حرمات المسـلمين ، وأوجبوا بناء الأسـوار حـولها ، واقامة الجسـور والقناطر والسـدود . وهذه المنشـآت يجب على جماعة المسـلمين الاسـهام فيها لأنها منافع عامة لهم . وقسم الفقهاء البناء فى المدن ثلاثة أقسام هى :

البناء المندوب كبناء المآذن والمساجد والأسواق والحمامات ، والبناء المباح كبناء المسـاكن والحوانيت ، والبناء المحظور كبناء القبور أو الكنائس . وبينت كتب الحسـبة كيفية التوسـع فى البلدان أو التطاول فى البنيان وزخرفته . كما نصـت على كيفية بناء بيوت الخلاء (دورات المياه) والمسـاجد فى المدن والقرى وكيفية البناء فوقها او الحاق الأسبلة والمكاتب والأضـرحة بها .

ووضعت كتب الحسـبة مواصـفات مواد البناء ، واطلقوا عليها طهارة مواد البناء وبينت كمية الماء التى تخلط بها ، ووضعوا عقود شـروط للبناء يتعاقد بها صـاحب البناء مع البنائين وهذه العقود تضـمنت ذكر الجنس والجـودة والقدرة على البناء والمواصـفات المطلوبة فى هذا البناء والمقاييس فى الطول والعرض والارتفاع ونص الشـارع بأن يأمر الوالى أو نائبه البنائين بالاتقان فى صـنعتهم مع دراسـة الجدوى والنص فيها بالعقـد حتى لا يلحق بصـاحب البناء ضـرر عظيم أو يتعثر فى البناء أو يسـتدين .

واذا غش البناء ألزمه المشـــرع باعادة البناء ، واذا غش فيه أو خالف المواصـــفات فعليه أن يصـــلح ما أفســـده . وهذه المواصـــفات وضـــعها المشـــرع ليكفل متانة البناء .

وبين الفقهاء أن البناء لا يتطاول على الجيران مع عدم فتح نوافذ تطل على الآخرين . ومنع الجار من وضـــع عروق للبناء فى جدار جاره وعدم اخراج الميازيب (المزاريب) والمشـــربيات فوق الطرق . وحدد الفقهاء حقوق صـــاحب الســـفل أو صاحب العلو فى الدار كما حددوا العلاقة بين المالك والمســـتأجر وبينوا الشـــفعة فى البناء عند بيعه أو قســـمته .

وأطلق الفقهاء أيدى الحكام فى منع البناء فى أماكن معينة أو اباحته ، كما منحوهم الحق فى منع التطاول فى البناء أو تقصيره حسب مصلحة الأمة .

المدن الاســـلامية بشـــمالى افريقيا

كانت المدن الاسلامية الأولى عبارة عن معســـكرات لجنود الفتح الاســـلامى ، فكانت الكوفة والبصـــرة مدينتين تنطلق منهما جنود الفتح الاســـلامى فى بلاد الفرس . والفســـطاط بمصـــر كانت مدينة جند المسلمين ينطلقون منها لفتح برقة وشـــمالى افريقيا ، لهذا كان العالم الاســـلامى مقسما تقســـيما سياسيا عرف بالأقاليم ، وهى العراق وحاضـــرته بغداد ، وشـــرقه كان المشـــرق الاسلامى يضم فارس وبلاد ما وراء النهر (نهر جيحون) وغرب العراق الشـــام وفلســـطين وبلاد الحجاز .. أما مصـــر وحتى المحيط الاطلنطى فكانت بلاد المغرب الاسلامى مع جزر البحر الأبيض المتوسط الغربية .

زيادة ابن أبيه عندما خطط البصرة جعلها خططا ، وبكل خطة ترك بها أرضـــا فضـــاء لمرابط الخيل ومقبرة لكل قبيلة ، وبنى المدينة بالجص والآجر (الفخار) وجعل لها ســـورا له أربعة أبواب وبنى بها الحمامات فى وســـطها .

أما مدينة الفســـطاط فقد خططها عام ٢١ هـ ٦٤٢ م عمرو ابن العاص على أســـاس الخطط ، وهى أول مدينة اســـلامية تقام فى شـــمالى افريقيا . وجارت البيوت للتوســـع العمرانى على الفضـــاء من حولها ، وأصـــبحت شـــوارعها ملتوية لهذا الســـبب ، مما اســـتلزم بناء مدينتى العســـكر فى أول عهد العباســـيين ليســـكنها جنودهم بمصـــر . والقطائع التى بناها أحمد بن طولون لينعزل بجنوده بها . وضـــاقت المدن الثلاث : الفســـطاط ، والعســـكر ، والقطائع بســـكانها فبنيت القـــاهرة كامتداد عمرانى لمصـــر العتيقة كما يسميها كتاب الخطط .

وكانت مدينة العســـكر قد بنيت عام ١٣٣ هـ/ ٧٥٠ م شـــمال شـــرق الفســـطاط واطلق عليها العســـكر لأنها كانت معسكرا لجنود العباســـيين فى مطلع حكمهم لمصر . ولما تولى أحمد بن طولون بنى شـــرقها مدينة القطائع عند ســـفح جبل يشـــكر ، وكان قد قســـمها الى قطائع أســـكن كل قطيعة من كانت تربطهم رابطة الجنس كالسودانيين والأحباش ، أو رابطة المهنة كالحدادين والبزازين . وكان أحمد بن طولون قد خطط مدينته القطائع على غرار مدينة ســـامراء التى أقامها المعتصـــــم العبـــاسى لتكون حاضـــرته بدلا من بغداد ، وكان قد بناها من الآجر وجعل جامعها له مئذنته الملوية وهو أشـــبه بجامع ابن طولون الذى يعتبر الأثر الوحيد الباقى من مدينة القطائع الطولونية حتى اليوم بمصـــر العتيقة . وكانت المدينة قد أحرقها الفاطميون بعد بنائهم مدينتهم القاهرة عام ٩٧٠ م .

أما مدينة القاهرة ، فقد وضـع جوهر الصـقلى تخطيطها لتكون سـكنى الفاطميين ، كانت مدينة ملكية ، بنيت شـوارعها الرئيسـية من الشـمال للجنوب لتكون ملقفا للرياح الشـمالية الباردة لتهويتها ، ولاسيما فى الأيام الحارة ، وتكون هذه الشوارع متعامدة مع حركة الشمس من الشـرق الى الغرب فتبرد أطول فترة ممكنة فى أيام القيظ لأن الشـوارع سـتكون ظليلة معظم أوقات النهار بظلال البيوت والقصـور على جانبى هذه الشوارع . وكان يوجد بالقاهرة الميادين ، وكان يطلق عليها الرحاب أو الرحبة وكانت هذه الرحاب أكثر اتسـاعا من الشـوارع والأزقة من حولها لتحقيق انسـياب المرور عبرها . وكانت هذه الميادين سـاحات خالية تماما من أى اشغالات .

ومن الطريف أن المصـريين عند بنائهم قصـرا أو بيتا أو يخططون شـارعا أو أرضـا للبناء كانوا يستعينون بالمهندسين ولا سيما أيام حكم المماليك . وكان المهندسـون يقومون بوضـع التصـميمات والانشـاءات حتى نجد الناصـر محمد بن قلاوون ينشىء ديوان (العمارة) وهو يمثل وزارة الاسـكان والتعمير فى زماننا ليقوم بالاشـراف على بناء المدارس والدور السـلطانية والخانقات والملاجىء والمسـتشفيات والحصـون والقلاع وكان المصـريون يراعون فى بناء دورهم أن تفضى الأبواب الخارجية الى دهاليز أو طرقات ملتوية حتى لا يرى المارة ما بداخلها ، وكانت النوافذ تسـد بالمشـربيات لتحقق هذا الغرض .

وفى مدينة القـاهرة أيام المماليك كانت من أهم واجبـات المحاسـب ومعاونيه مراقبة شـوارع القاهرة وانارتها ليلا . وكانوا يقومون بازالة اشـغالات الطرق ، وكانت شـوارعها مرصـوفة ، ولها أرصـفة على الجـانبين . وكانت شـوارع

القاهرة ضـيقة لمنع الشمس الحارقة وحماية المارة الا أنها كانت تتمتع بانسـياب المرور عبرها لمراقبة ومنع الاشـغالات بها .

وفى عام ٥٠ هـ/٦٧٠ م . بنى عقبة بن نافع الفهرى مدينة القيروان فاختار ارضـا سبخة ، وبنى فوقها مدينته التى أرادها أن تكون عز للاسـلام الى آخر الدهر . وكانت الأرض التى اختارها موئلا للوحوش والسـباع والهوام . فاختط أولا ، دار الامارة ، ثم اختط موقع المسـجد الجامع وحار فى اختيار القبلة حتى هداه الله اليها ، وكان المسـجد صـغيرا ومئذنته منخفضة ، واليوم يعتبر اشـهر واكبر جامعة فى الشـمال الأفريقى كله . والقيروان اتخذها موسى بن نصـير مقر' لولايته ، وجعلها قاعدة انطلاق الغزوات ضـد البربر وفتوحات الأندلس حتى لقب بأمير القيروان عندما حكمها عام ٨٥ هـ/٧٠٥ م .

مدن المشـرق الاسـلامى

بنيت مدينة بغداد عام ١٤٥ هـ/٧٦٢ م وكانت دائرية الشكل وجعل لها أربعة مداخل رئيسية ومحورية . ففى شـمالى شرقيها كان باب خراسـان ، وفى شـمالى غربيها كان باب الشـام ، وفى جنوبى شـرقيها باب البصـرة ، وفى جنوبى غربيها باب الكوفة . وبنيت بيوتها من الطين الملاط والبوص ، وكانت تربط به المداميك . أما الآجر (الفخار) فكان يستخدم فى عمل القباب .

وكان حول مدينة بغداد سـوران خـارجيان ويحيطـان بالمدينة ، وبهما الأبواب الأربعة وكان السـور الداخلى أعرض من السـور الخارجى ، وحولهما خندق . لهذا كان أمام كل باب قنطرة العبور فوقها للدخول أو الخروج من المدينة . وكان السـور الداخلى دهاليز يعسكر فيها الجند للدفاع عن المدينة .

وكان من عادة شـــعوب آسيا الوســـطى بناء القلاع حول المدن الصـــغيرة والحصـــون حول المدن الكبيرة ، وكانت تضرب الأســـوار حول هذه المدن ، وكان بمدينة بخارى رباط بســـورها عند باب ســـــمرقند ، وكانت مهمة الرباط الدفاع عن المدينـــة وحراســـتها . لهذا كان من عادة شـــعوب آســـيا الوســـطى ، تخطيط مدنهم على هيئة القلاع والحصـــون ، وبداخلها الأســـواق والمساجد والبيوت والحمامات .

المـــدن المتـــاحف

ثلاث مدن رئيسية بآســـيا الوســـطى تعتبر اليوم متاحف ومحميات معمارية ، ولا يجوز البناء حولها وهى طشقند ؛ وسمرقند، وبخارى . وكانت سمرقند طوال تاريخها الموغل فى القدم مركز الحضـــارة والتقاليد الثقافية والتاريخية طوال العصور الاسلامية، وتعتبر لهذا أهل ســـمرقند أن مدينتهم قلب العالم ولاسيما وأنها كانت تقع على طريق قوافل الحرير التى كانت ترد اليها من الصين ليصـــل الى أوربا . والزائرون اليوم لهذه المدينة التراثية تبهرهم آثارها المعمارية المتميزة وكان المؤرخون العرب يطلقون على هذه المدينة بلاد الصغد .

وكانت مدينة بخارى يطلق عليها قبة الاســـلام لكثرة علمائها وأئمتها ، وكانت المدينة قلعة (أرك بخارى) وكان « أفراسياب » قد بناها وبنى بها قصـــره ، وقد خربها « خوارزم شاه » عـــام ٥٣٤ هـ/١١٣٩ م . ثم عمرها بعده « بنماين ـــ البكتين » لكن الاتراك الغز داهموها وخربوها ، وعبرت القلعة ليدمرها جنكيز خان عام ١٢١٩ م . ويوجد حاليا ببخارى مدرســـة (مير عرب) وجامعها وكانت منذ خمســـة قرون مدرسة شـــهيرة فى المشـــرق الاســـلامى . وكان عربى يمنى يســـمى « أمير عرب » قد قام

بتأسيس هذه المدرســـة التى اشـــتهرت بمكتبتها الثرية ، وجذبت اليها التلاميذ من شتى بقاع المشـــرق الاســـلامى .

أما مدينة بلخ التى كان يطلق عليها العرب (أم البلاد) فهى احدى المدن الأثرية والتاريخية بآســـيا الوســـطى وتقع شـــمال افغانســـتان وكان العرب قد فتحـــوها عام ٦٦٣ م . وكان بها مسجد (نوح جديد) بقبابه التســـع وشكله المربع . وهذه القباب تقوم على تســـعة أقواس مدببة تحملها ســـتة أعمدة رئيسية . ولم يبق من زخارف هذا المسجد ســـوى الزخارف الداخلية ، وهى تبدو للناظرين فريدة فى أشـــكالها الهندسية البديعة ، سواء فى فن التوريق الزهرى أو النقوش الجصـــية التى تكســـو سطح الأعمدة ، ولا تتكرر الرســـومات الا فى التيجان . وكان هذا المســـجد قد بنى فى القرن التاســـع ويعتبره علماء الآثار انجازا معماريا لا مثيل له .

وهذه المدن تنادى المســـلمين فى كل مكان للحفاظ عليها واعادة النشـــاط الاســـلامى اليها بمناصـــرة قضايا ســـكانها المســـلمين .

وأخيرا ، تعتبر المدن الاســـلامية بامتداد آســـيا الوســـطى متاحف معمارية فريدة رغم ما أصـــابها من الاهمال والتخريب أيام الحكم الشـــيوعى تحت ســـتار ما كان يسمى بالاتحاد السوفيتى ، لأن الشـــيوعيين كانوا ينظرون الى هذه المبانى التراثية الاسلامية على أنها متاحف وليســـت كمؤسسات دينية ، وتتميز العمارة هناك بالزخرفة والعلو وزخرفة الواجهات وتشـــييد القباب المضـــلعة والملونة .

هذه ملامح المدن الاســـلامية ولاســـيما المدن التى تأثرت بالفنون الاسلامية وازدهرت فى ظلال الاسلام .

الفنون والتصاوير الاسلاميـــة(١)

تعتبر الطرز الاســـــلامية تعبيراً عن فهم القوانين الكونية التى تســـيطر على كل المخلوقات .. هكذا قال (كيث كريشلو) الاستاذ بكلية الفنون الملكية بلندن عند وصـــفه للفنون والتصاوير الاســـلامية . ويضـــيف (كريشلو) بأن الغرب ينظر الى الفنون الاســـلامية نظرة خاطئة لانه ينظر اليها من الجانب التزيينى فقط علما بأن تجريدات هذه الفنون من البراعة بحيث تخلب الحس . فتأخذه خارج النطاق العادى لتوصـــل الى حقيقة الوجود الكونى . ويقول الكاتب بأن هذه الفنون الاســـــلامية فى كل اشـــكالها وطرزها تقوم على قواعد تضـــــفى معانى فلســـــفية وروحية أصـــيلة لان أعمالا كالفسيفساء والمشــــربيات والسجاد والعمارة الاسلامية تقوم على تشكيلات ورسومات وتصميمات رياضية .

التصـــوير عنـــد العـــرب

التصـــوير كلمة عربية يقصـــد بها تشـــكيل التماثيل ورسوم الصـــور على الورق والجدران والقماش والخشـــــب والزجاج والفسيفساء الزجاجية والفخار والخزف . وكان التصـــوير عند

---

(١) مقال للكاتب فى مجلة (منبر الاسلام) .

العرب يتجه الى الرسـومات النباتية متحاشـيا الرسـومات الحيوانية . لهذا نجده ثريا بالرسـومات والزخارف الهندسـية والزخرفية التى اصبحت سـمة بارزة فى الفن الاسلامى .

ومن اشـهر الآثار الاسـلامية التى يظهر فيها هذا الفن المسجد الأموى بدمشـق ، وقبة الصـخرة وقصـر عمرة والقصر الحيرى الغربى والشـرقى . وهذه كلها تعبر عن الزخـارف الاسـلامية ابان العصـر الأموى . لأن الفنان المسلم اسـتطاع بعبقرية فنية التوليف بين فنون الفرس والروم والصـين والقبط والبربر . وأخرج فنا اسـلاميا متجانسـا .. له أسسه ومعاييره وسـماته الفنية . لأنه استبعد من هذه الفنون الوافدة ما يتنافى مع الدين أو ما لايتفق مع مزاج الفنان الدينى أو حسه الشعورى والايمانى .

ولما سـادت روح الاسـلام فى المشـرق والمغـرب كان الصـانع ملتزما التزاما يجعله يقدم أحسـن ما عنده ويتقن ما يصـنعه أو يرسـمه أو ينسـجه ويزينه . وكان لكراهية المسلمين للتصـوير وصـناعة التماثيل أن ازدهر الشـعر العربى بوصفه وتصـويره للمناظر العربية تصـويرا بديعا . كما أبدع الفنانون المسـلمون فى رسـوماتهم الزخرفية والنباتية والزهرية وامتد هذا التأثير الى الخط العربى الذى أصـبح لوحات زخرفية وتصويرية بديعة .. مما أظهر الخطوط العربية بشـكلها الجمالى الأخاذ للناظرين .. حتى أصـبحت لوحات الخط العربى لوحات فنية عالمية .. لأن هذا الفن قاصـر على اللغة العربية مما جعل الغرب وحاكيه فى رسـوماته لابداعاته الفنية الرائعة . فكان الفنانون الغربيون يقلدونه ويرسـمونه بآياته القرآنية لأنهم تأثروا بابداعات الزخارف والخطوط ، فقلدوها دون أن يعرفوا معناها .

وفى بغداد والموصـــل ودمشق والقاهرة وقرطبة وغرناطة كان يوجد بها مدارس لتعليم الرســـم والتصـــوير الاســـلامى . وكانت الصـــور فى المخطوطات المصورة عبارة عن تمثيل الطبيعة بتنوعاتها دون تجســيم المنظر أو مراعاة لقواعد المنظور أو التنظير أو الحجم وكان هذا الأســـلوب سائدا فى العصـــرين المملوكى والعثمانى .

ولقد تأثرت الفنون الغربية ولا ســـيما فى القرن الـ ١٥ بالرســـومات الاســـلامية التى انتشـــرت فى البندقية . وهذه التأثيرات وفدت اليها مع ازدهار التجارة والمواصـــلات البحرية ما بين المدن الايطالية والشـــرق الاســـلامى . وظهرت هنـــاك لوحات تصـــور الحياة فى المشـــرق . وانتشـــرت هذه الصور كموجة حضـــارية تعبر عن الحضارة الاســـلامية فى مصر والشام والأندلس والآستانة وفارس .

فلســـفة جمـــالية

تتســـم الفنون الاســـلامية فى التصوير الابداعى بفلسفة جمالية تحقق الوحدة الفنية التى تثريها روح الاســـلام وتعاليمه فى شـــتى صـــورها وابداعاتها . لهذا نجد هذه الفنون ســـواء فى الزخرفة أو التصـــوير لها لغة تعبيرية واحدة ســـواء فى النقوش الزخرفية أو الهندســـية فيمكن لأى شخص التعرف على هذه الفنون بســـهولة .. وتعتبر اطول الفنون عمرا لأنها مازالت ســـائدة فى العالم الاســـلامى حتى اليوم . رغم أن الزخرفة مقيدة فى عمارة المســـاجد بحكم الشـــرع الا انها أكثر تحررا فى العمائر الدنيوية والتى نراها فى القصور والخانات والحمامات والحانقهات، ومن كثرة تنوعاتها كانت الزخارف تخفى حقيقة المبنى نفســـه ، كما أن اســـتعمال الآجـــر (القرميد) فى الزخرفـــة يعتبر نمطا

اســلاميا فريدا فى الزخرفة البنائية . فجــامع (تيليا كارى) بســمرقند من كثرة زخارفه الداخلية المؤشــاة بالذهب نجد الضوء يضفى عليها بعدا جماليا عميقا . لهذا اطلق عليه جامع الذهب . وهناك يوجد مســجد (خاتم) شــيدت واجهته بالطوب المزجج والملون بأصــباغ أملاح الكروم لتأخذ زخارفه الطابع الاسلامى .. فعلى الواجهة الموزاييك والرخام المنحوت والخشــب المضــغوط والقبة المحززة والمســلوبة بلونها الأرزق مما يضــفى على هذا المسجد بعدا جماليا رائعا . وهذا الأسلوب فى الزخرفة كان متبعا فى كل مساجد المشــرق الاسلامى .

والفنون الاســلامية عرفت بالارابيســك وهو فن الرقش (الزخرفة) الاســلامى الذى ظهر فى رســم المصحف وتزيينه وفى عمل المشــربيات . والتوريق أحد فنون الزخرفة الاسلامية وهو فن الرسم على الحوائط واشتهر فى الفنون الاسلامية .

والقرآن لـم يحرم الصــور والتصــوير لكن الرســول (صلى الله عليه وسلم) نهانا عنها . وهذا النهى عن تصــوير الانســان والحيوان جعله لا يدخل فى تزيين المصــحف أو الأبنية الدينية مراعاة لحرماتها وهذا ما جعــل المسلمين ينصرفون عن الصــور الى اتقان الزخرفة المتداخلة بين الاغصــان والأوراق النباتية . وهذا التوريق المتداخل لا يوجد أصــلا فى الطبيعة .. ولهذا ـــ أيضا ـــ برز الخط العربى كتصــوير فى القرآن وتدوينه عندما انتشــر الاسلام فى مشارق الأرض ومغاربها .

قبة الصــخرة والعصــر الأموى

تعتبر قبة الصــخرة التى بنيت فى العصــــر الأموى من أبدع الآثار الاســلامية . وهى أقدم أثر اســلامى عندما شــيدها

عبد الملك بن مروان عام ٦٩١ م/٧٢ هـ . وجعلها ساحة كبيرة اطلق عليها الحرم الشريف وكان قد بناها لغرض سياسى عندما كانت مكة والمدينة تخضع للخلافة الزبيرية وانشق عبد الله بن الزبير عن الدولة الأموية وجعل عبد الملك بن مروان من قبة الصخرة مزارا وحجا كالكعبة . لهذا جعل حولها ساحة كبيرة لتستوعب أهل الشام حولها . كما هو الحال عند بيت الله الحرام والمسجد الاقصى ثالث الحرمين الشريفين . وذلك حتى لا يتصل أهل الشام بابن الزبير فى مكة وينقلبوا على الحكم الأموى بدمشق .

والقبة شيدت مثمنة الشكل وكانت مصنوعة من الخشب المغطى بألواح الرصاص وفوقها الواح من النحاس البراق . ولها رقبة اسطوانية بها ١٦ نافذة زجاجها ملون وبداخلها كتابات قرآنية بالخط الكوفى فوق أرضية زرقاء مع وجود زخارف من الفروع النباتية حول هذه الآيات وتخرج منها الأوراق فى شكل لولبى (حلزونى) مع رسومات لأوراق الأشجار والفواكه . والقبة مبطنة من الداخل بالفسيفساء الملون الجميل .. وتعتبر قبة الصخرة من روائع الآثار الاسلامية ومن أكثرها تنسيقا وابداعا معماريا ولاسيما وأن نقوشها فريدة وزخارفها لها رونقها البديع . وتتسم عمارتها بالاتقان المبدع والتناسب والتناسق المتقن . وفى وسطها الصخرة المشرفة التى عرج من فوقها الرسول (صلى الله عليه وسلم) الى الملأ الأعلى .

لهذا نجد أن أول من ادخل الزخارف الاسلامية هم الأمويون الذين استوحوا هذا الفن من الطرز الشامية التى كانت سائدة فى عصرهم؟؟

من الابداع الفنى ما نراه فى الأعمال الفنية فى أشـــــكال وخطوط الخط العربى والمنمــــات وصـــور الحيوانات فى كتب كليلة ودمنة ومقامات الحريرى والشـــــهنامة للفردوسى وكتاب المخلوقات للطوسى ورســـائل اخوان الصــفا . ويتجلى التصوير الزخرفى فى تزيين بعض ســـور القرآن الكريم ولاسيما الزخارف التى تفصل السور والهوامش والمقاطع وخاتمة القرآن .

ومن الفنون التى أبدع فيها المســلمون روائع الخط العربى على المســـاجد والمنشئات الاســـلامية وتزيين الآيات القرآنية حتى اصـــبحت لوحات الخط العربى من حســـن جمالها تعرض فى المتاحف والمعارض العالمية . لأن الخط العربى له قواعد وأصـــول فنية فى كتابته . فيه تشـــكيلات متعددة منها خط النسخ والثلث والرقعة والكوفى والقيروانى والديوانى والبيرونى . وقد أظهر الخطاطون فيه براعة فى الرســـومات والزخرفة . حتى الكتب والمصاحف كان الوراقون يزخرفون جلداتها بزخارف بديعة .

واتجهت فنون الخط العربى الى التجويد والتنويع والتطويع والتنافس بين الخطاطين . لأن اللغة العربية هى اللغة الوحيدة فى العالم التى تنوعت أشـــكال حروفها وخطوطها وظهرت لهذا عدة مدارس خطوطية منها الفارســـية والمغـــربية والمصـــــرية والعراقية والتركية (قبل ادخـــال الحروف اللاتينية على اللغة التركية) . والخط العربى بتنويعاته فوق القباب وجدران المساجد لـــه وظيفة رمزيـــة حيث برع المخططون فى اظهـــار قدراتهم بهذه النقوش الابداعية . لأن فى الكتابة العربية قواعد لحروفها سواء من الناحية الطولية أو العرضـــية أو حتى التناســـقية والتناغمية

وكل خطاط يلتزم بها . لأن اللغة العربية تعتبر لغة منقوشة لطبيعة حروفها التى لها أشكالها المختلفة سواء أكانت مستقيمة أو منحنية أو أفقية أو مائلة أو راسية . ومما يضفى لها جمالا الزخارف النباتية حولها .

الحفر والنحت

كان الأمويون يحفرون الحجارة على واجهات قصورهم كقصر عمرة وقصر الحيرى الغربى وكان المبنى يقسم الى شرائط على شكل مثلثات بها رسوم مراوح وكيزان الضوء والنجوم الصغيرة وأشكال زهرة اللوتس مع تفريغات لأغصان أشجار العنب وعناقيده . وكان الفنانون الأمويون يزينون أيضا .. واجهات القصور بالفسيفساء الملونة .

كما ظهر الحفر على الخشب أيام الأمويين . وكان يتميز بالحفر العميق وتصوير الطبيعة بحفر العناصر الزخرفية بعناقيد العنب وأوراقه المدلاة مع فروع ملتوية . وقد تكون الأوراق مفصصة أو مركبة . وكلها فنون كانت سائدة وقتها فى بلاد الشام . ويوجد بالمتحف الاسلامى بالقاهرة نماذج من هذا الحفر ، ويعتبر المسجد الاقصى نموذجا معاصرا لفن الحفر على الخشب ابان العصر الأموى . وهذا ما نراه فى أعمدته الخشبية وأطراف العوارض الحاملة لسقف البلاطة الوسطى للمسجد بأشكالها الهندسية المنتظمة فى شكل مثلثات أو مسدسات او دوائر وأشكال بيضاوية وحولها الزخارف النباتية بتوريقاتها الحلزونية . وأيام الفاطميين انتشر فن النقش على الخشب حيث صوروا حياتهم ومجالسهم على الواح موجودة بالمتحف الاسلامى بالقاهرة . واشتهر الشوام

والمصـــريون بالحفـــر على العاج بأشـــكاله الزخرفية البديعة والرقيقة مع الكتابة عليه . وكانوا يصـــنعون من العاج علب المجوهرات والمكاحل واوانى العطور وكانت تنقش عليها الزهور والنباتات .

المحـــاريب

يعتبر المحراب فى معظم المساجد قطعة فنية رائعة بزخارفه الجميلة والمتناســـقة ، والمحراب هو التجويف على حائط القبلة فى الجوامع والمســـاجد وقد يكون علامة على الحائط بلا تجويف . لارشـــاد المصـــلين باتجاه القبلة .

وكان المحراب الأول فى الاســـلام ايام عصـــر الرســـول فى الجانب الشـــمالى باتجاه بيت المقدس وكان عبارة عن علامة بلا تجويف . ثم انتقلت القبلة الى الحائط الجنوبى من المســـجد باتجاه الكعبة .

وغالبا ما تزين المحاريب بالزخارف الهندســـية المتناســـقة مع تدوين الآيات القرآنية ولفظ الجلالة عليها .

ومن الخشـــب .. صنعت المحاريب الخشـــبية المتنقلة وكان موجود منها بجوامع الأزهر والســـيدة عائشـــة والسيدة رقية . وهى موجودة حاليا بالمتحف الاســـلامى بالقاهرة .. وصـــنعت هذه المحاريب الخشـــبية باســـلوب الحفر بالحشـــو المجمع ومعظمها عليها أطباق نجمية او ســـداسية الشـــكل مع وجود زخارف نباتية وخطوط متوازية .

صـــناعة البللور

عرف المصـــريون أيام حكم المالك صـــناعة البللور الذى كان يصـــنع من الصخر البللورى . والبللور كان يجلب من المغرب وجبال البحر الأحمر لصـــنع الاكواب والاباريق بألوان مذهبة . وعليه كانت ترسم رسومات نباتية وحيوانية ويكتب عليه بزخارف كتابية .

وظهر فن المشـــكايات (القناديل) وهو فن يتميز بالزخرفة على الزجاج بالمينا أو الذهب ويكون الزجاج على هيئة وعاء له جســم منبعج ورقبة فوقه على شـــكل هرمى مقلوب . والمشكاة كان لها قاعدة زجاجية .. وحاليا .. يوجد نماذج من هذه المشكايات عليها الآيات القرآنية والزخارف الاســـلامية المموهة على الزجاج بالذهب وغالبا ما تكون هذه الآيات من ســـورة النور . وأيام الفاطميين ازدهرت صـــناعة الزجاج بمصـــر وكانوا يشـــجعون صناعته والتفنن فى زخرفته .

الســـجاد

عرف الفن الاســـلامى صـــناعة وزخرفة الســـجاد بأشكاله ورســـوماته المميزة مع تحاشى رســـم صور الانسان والحيوان . واشـــتهرت الطنافس (الأبســـطة المخملية) والمطرزات الاسلامية فى القرون الـــ ١٦ حتى ١٩ . وكانت الســـجادة تمتاز بالوحدة الزخرفية على مســـاحتها . وعنى العصـــر المملوكى بالرســـومات الهندســـية . كما عنى العصـــر العثمانى برســـوم الزهرة الحرة والمســـاحات اللونية ولاسيما باللونين الأحمر والأزرق . وأمتازت السجاجيد العجمى بالزخارف النباتية والحيوانية . وبرع المصريون والأعاجم فى صـــنع الطنافس وكانت تعتبر تحفا فنيـــة متنوعة

الألوان والزخارف والتصميمات . وكانت تصــور تصــويرا دقيقا وتســتعمل كســتائر للنوافذ والشــرفات أو كبسط على الأرض أو فوق الأرائك والعروش . وأيام العباســيين قلدوا الفرس فى رســم الدوائر المنعزلة التى تمثل موضــوعات زخرفية كرســم الحيوانين المتقابلين أو المتدابرين وبينهما شجرة الخلد .

المنســـوجات المطـــرزة

كان يوجد بمصــر دور الطراز وهى مؤسسات كانت تابعة للدولة ولاسيما فى عصــر المماليك وتقوم بصـــنع الملابس من التيل والمزخرف بخيوط الذهب والقصـــب .. وكانت تصـــنع بها الشـــيلان والأحزمة والعمائم المزركشـــة أيام السلاطين المماليك . وكانت ملابس الأمراء وشـــيوخ الأزهر توزع عليهم كخلع سلطانية وكانت دور الطراز فى مدينة دبيق وشـــطا وتنيس بمصر .

وكانت صـــناعة النســـيج من أضخم الصناعات وأروجها فى العالم الاســـلامى . وكانت أوروبا تتهافت على الأقمشـــــة والمنســـوجات الشـــرقية التى كان يرتديها الرهبان والقساوسة هناك . لأن الطراز الاســـلامى كان شـــائعا . وكانت هذه الملابس تصـــدر الى أوروبا وعليها الآيات والزخارف والكتابات العربية . وكانت مصـــر مشـــهورة بالقباطى التى كانوا يصـــــنعونها من الكتان والياف ســـعف النخيل والحلفا . وكان النســـيج يوضـــع عليه فى دار الطراز شارة الســـلطنة والبســـملة وسنة الصنع واسم المصنع .

وقد برع المصـــريون فى الزخرفة النسيجية بنسج الزخارف مع القماش وكانوا يكثرون فيها الأهلة والطيور والخيل والطواويس التى تعطى جمالا زخرفيا بألوانها المتداخلة . وكانت مصـــر تصنع

كســوة الكعبة من القباطى (قماش مصــرى) المصــنوعة من الديباج الأبيض الخراســانى ويوم النحر كانت تكسى بالديباج الأحمر الخرســانى . وكان على القماش دارات عليها الحمد لله والتكبيرات والتســابيح . وهذه الكتابات كانت تزخرف الكســوة فى شــكل دوائر . لهذا قلدت أوروبا صــناعة الأوبيســون والجوبلان من فن تزيين قماش القباطى لدى المصريين .

وفى العصــر العثمانى ازدهرت صــناعة النسيج واصبحت المنســوجات التركية تتميز بالرســوم النباتية وزهــور القرنفل والسوسن والورد . وادخل الأتراك فن التطريز فى رســم الستائر لتكون زخرفتها فى شــكل صــور وموضوعات مصورة ومتكاملة . وكانوا يطرزون القماش بخيوط الحرير والمعادن .

وكانت الكتب مصورة بأشكال وصور صــغيرة ترسم على هوامش المخطوطات تصــور كلوحة متكاملة فى الكتب التراثية كالشــهنامات (الملاحم الفارســية) أو كتب الشــعر الملحمى ودواوين الشــعر العربى والمقامات كمقامات الحريرى وكتاب كليلة ودمنة . وكانت هذه المنمنمات تصور المعارك البحرية والحربية والحياة فى بلاطات السلاطين والملوك .

وكان يطلق على هذا الفن التصوير الذى كان غنيا بالزخارف واغصــان الزهور والحيوانات . وكانت هذه المنمنمات ترســم على الســجاد والخزف كزخارف محلاة ودقيقة . واشــتهر الفرس والأتراك بهذا الفن الرفيع .

صــناعة ((التكفيت))

اشــتهر المصــريون بالكفت (التكفيت) ، والتكفيت هو الرســم والحفر على الأوانى المعدنية وزخرفتها بأســلاك من

الذهب أو الفضـــة أو أى معدن آخر ، وكانت هذه الأوانى المعدنية تزخرف برســـومات وزخارف نباتية أو حيوانية . وأيام عصـــر المماليك اشـــتهرت مصـــر بالأكواب والأباريق والأوانى المكفتـــة كالنحاس المكفت بالذهب أو الفضـــة . والفضـــة المكفتة بالذهب. وكان أول ظهور للمعادن المكفتة أيام الســـلاجقة ثم انتقلت هذه الصـــناعة من الموصـــل بالعراق الى مصـــر . وكانت تصدر مصر المكاحل والأكواب والأباريق والصـــحون المكفتة الى اوروبا .

صـــناعة الخـــزف

كان المســـلمون يقبلون على طلى الأوانى الخزفية تجنبا لاستعمال أوانى الذهب أو الفضة فى الشراب أو الطعام ، وكان الفنان المسلم يحفر على الخزف أشكالا بارزة وتعبيرية . لهذا نجد أن الخزف الاســـلامى تنوعت صناعته وزخارفه وتزيينه وطلاؤه . فكان الفخار يزخرف قبل احراقه بأشـــكال هندســـية أو حيوانية أو نباتية بديعة . واســـتعمل صناع الفخار طريقة التحزيز (الحز) للأوانى فى بدن الاناء . وكانت صـــناعة الخزف (البورسلين) من الطين المضـــاف اليه الرمل والكاولين وكانت الرســـومات والزخارف ترســـم على البطانة قبل وضـــع الاناء فى الفرن وكانت هذه الأوانى يكتب عليها خطوط عربية جميلة وآيات قرآنية .

والقيشـــانى هو بلاطات خزفية تستعمل فى تزيين الجدران وكان يصـــنع فى بلدة كيشـــان (قيشـــان) والبلاطة مزججه لامعة وملونه بالأبيض أو الألوان . وقد تزخرف ويرســـم عليهـا الحيوانات أو النباتات ثم ازدهرت صـــناعة القيشـــانى فى بلاد الأندلس وفى بروســـة (بورصـــة) بتركيا أيام العثمانيين .. وأصبح الطراز العثمانى والأندلسى ســـائدا حتى اليوم ، ومازال يزين قصور الحمراء واشبيلية وغيرها من المدن الأندلسية .

هذا عرض للفنون الاســــلامية وصـــناعاتها التى تأثرت بهذه الفنون . وازدهرت فى ظلال الاســـلام ونقلها الغرب وحاكاها . والزخارف الاســـلامية فى المؤسسات الدينية كالجوامع لم تكن تؤدى وظائف دينية معينة كما فى الزخارف المســيحية أو اليهودية أو البوذية أو الوثنية . فالآيات القرآنية على الجــدران وحول المآذن والقباب هى قبســـات نورانية وايمانية تدعو الجمــــاعة الاســـلامية الى التقوى .

واخيرا .. لقد كانت الحاجة التى شـــعر بها المســلمون لاظهار الوجود الاســـــلامى تتمثل فى هذه الفنون ولا تتعــدى أســـلمتها بما لا يتعارض مع الشـــــريعة ، وتتوافق مع المزاج الاســـلامى . فقبل المســـلمون ما قبلوه ورفضـــوا ما رفضوه .. فأوجدوا طرزا وانماطا اســـلامية قد صـــهرت فى اطار اسلامى بالغ التنوع بما يؤصله وجعله اكثر استمرارية .

وهذا ما نراه فى العمارة الاسلامية بالقاهرة والفســـطاط فى الجوامع والأوابد التراثية الاسلامية والأســـبلة والخانقاهات وهذا ما جعل مصر العتيقة وقاهرة المعز مدينة متحفية الآن .

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة

صدر من هذه السلسلة :

	العنوان	المؤلف
٢١	ـ أشـعة الليزر والحيـاة المعـاصرة	تأليف د٠ محمد زكى عويس
٢٢	ـ القطاع الخـاص وزيادة الانتاج فى المرحلة القادمة	تأليف د٠ سـعد الدين الحنفى
٢٣	ـ المريخ الكوكب الأحمـر	تأليف د٠ منير احمد محمود حمدى
٢٤	ـ قصـــة الأوزون	تأليف د٠ زين العابدين متولى
٢٥	ـ قصص من الخيال العلمى ج ٢	تأليف رؤوف وصـفى
٢٦	ـ الـــذرة	تأليف م٠ ابراهيم على العيسوى
٢٧	ـ قصـة الرياضـة	تأليف عـلى بركـه
٢٨	ـ الملوثـات العضـوية	تأليف محمـد كامل محمـود
٢٩	ـ ألوان من الطاقـــة	تأليف عبد اللطيف أبو السعود
٣٠	ـ صـور من الـكون	تأليف زين العابدين متولى
٣١	ـ الحاسـب الالكترونى	تأليف محمد نبهـان سـويلم
٣٢	ـ النيـــل	تأليف محمد جمال الدين الفندى
٣٣	ـ الحرب الكيماوية ج ١	تأليف دكتور أحمد مدحت اسلام د٠ عبد الفتـاح محسن بدوى د٠ محمد عبد الرازق الزرقا
٣٤	ـ الحرب الكيماوية ج ٢	تأليف دكتور أحمد مدحت اسلام د٠ عبد الفتـاح محسن بدوى د٠ محمد عبد الرازق الزرقا
٣٥	ـ البصـر والبصـيرة	تأليف طلعت حلمى عـازر
٣٦	ـ السـلامة فى تـداول الكيماويات	تأليف د٠ سمير رجب سليم
٣٧	ـ التلوث الهوائى والبيئة ج ١	د٠ طلعت الأعـوج
٣٨	ـ التلوث الهوائى والبيئة ج ٢	د٠ طلعت الأعـوج

٣٩	ـ التلوث المائى ج ١	د. طلعت الأعوج
٤٠	ـ التلوث المائى ج٢	د. طلعت الأعوج
٤١	ـ نعيش لنأكل أم نأكل لنعيش	د. محمد ممتاز الجندى
٤٢	ـ أنت والدواء ط ١ ، ١٩٩٤ ، ط ٢ ، ١٩٩٧	صيدلى/ أحمد محمد عوف
٤٣	ـ اطلالة على الكون	د. زين العابدين متولى
٤٤	ـ من العطاء العلمى للاسلام	د. محمد جمال الدين الفندى
٤٥	ـ مسائل بيئية	تاليف رجب سعد السيد
٤٦	ـ البث الاذاعى والتليفزيونى المباشر ج ١	جلال عبد الفتاح
٤٧	ـ البث الاذاعى والتليفزيونى المباشر ج ٢	جلال عبد الفتاح
٤٨	ـ صفحات مضيئة من تاريخ مصر ج ١	تاليف محمود الجزار
٤٩	ـ صفحات مضيئة من تاريخ مصر ج ٢	تاليف محمود الجزار
٥٠	ـ جيولوجيا المحاجر	جيولوجى/ نور الدين زكى محمد
٥١	ـ الاستشعار عن بعد ج ١	د. سراج الدين محمد
٥٢	ـ الاستشعار عن بعد ج ٢	د. سراج الدين محمد
٥٣	ـ الردع النووى الاسرائيلى	د. ممدوح حامد عطية
٥٤	ـ البترول والحضارة	د. توفيق محمد قاسم
٥٥	ـ حضارات أخرى فى الكون	جلال عبد الفتاح
٥٦	ـ دليلك الى التفوق فى الثانوية	سامية فخرى
٥٧	ـ التلوث مشكلة اليوم والغد	د. توفيق محمد قاسم

٥٨	ـ انهيـار المبـانى ط ١ ١٩٩٥ ، ط ٢ ، ١٩٩٧	م. جرجس حلمى عـازر
٥٩	ـ الوقت والتوقيت ج ١	عبد السميع سالم الهوارى
٦٠	ـ الوقت والتوقيت ج ٢	عبد السميع سالم الهوارى
٦١	ـ الجيولوجيا والكائنـات الحيـة	د. دولت عبد الرحيم
٦٢	ـ أسلحة الدمار الشـامل ج ١	د. جمال الدين محمد موسى
٦٣	ـ أسلحة الدمار الشـامل ج ٢	د. جمال الدين محمد موسى
٦٤	ـ النقل الجـوى فى مصر ج ١	د. سراج الدين محمـد
٦٥	ـ النقل الجـوى فى مصر ج ٢	د. سراج الدين محمـد
٦٦	ـ قراءة فى مستقبل العالم	تاليف : كـلايف رايش
٦٧	ـ غدا القرن ٢١٠٠٠ ، ط ١ ، ١٩٩٥ ، ط ٢ ، ١٩٩٧	رجب سـعد السـيد
٦٨	ـ الشـتاء النووى ج ١	د. جمال الدين محمد موسى
٦٩	ـ الشـتاء النووى ج ٢	د. جمال الدين محمد موسى
٧٠	ـ تاريخ الفلك عند العرب	د. محمـد امام ابراهيم
٧١	ـ رحلة فى الكون والحياة ج ١ ط ١ ، ١٩٩٦ ، ط ٢ ، ١٩٩٨	صيدلى/ احمد محمد عوف
٧٢	ـ رحلة فى الكون والحياة ج ٢ ، ط ١ ، ١٩٩٦ ، ط ٢ ، ١٩٩٨	صيدلى/ احمد محمد عوف
٧٣	ـ الصحـة المهنيـة ج ١	د. سـمير رجب سـليم
٧٤	ـ الصحـة المهنيـة ج ٢	د. سـمير رجب سـليم

٧٥	ـ عـالم الحشيش ج ١	د٠ جمال الدين محمد موسى
٧٦	ـ عـالم الحشيش ج ٢	د٠ جمال الدين محمد موسى
٧٧	ـ أهم الأحداث والاكتشافات العلمية لعام ١٩٩٥ م	محمـد فتحـى
٧٨	ـ النقل الجـوى وتلوث البيئة فى مدينة القاهرة ج ١	د٠ سراج الدين محمـد
٧٩	ـ النقل الجـوى وتلوث البيئة فى مدينة القاهرة ج ٢	د٠ سراج الدين محمـد
٨٠	ـ رحلات علميـة معاصرة	صيدلى/ أحمد محمد عوف
٨١	ـ الكمبيوتر خبيرا ومفكرا	محمـد فتحـى
٨٢	ـ العلمـاء ثائـرون	د٠ جمال الدين محمد موسى
٨٣	ـ الحرب النووية القادمة	د٠ جمال الدين محمد موسى
٨٤	ـ العلم ومستقبل الانسان	د٠ جمال الدين محمد موسى
٨٥	ـ الثورة الخضراء ٠٠ أمل مصر	م٠ جرجس حلمى عـازر
٨٦	ـ عـالم الأفـلاك	د٠ امام ابراهيم أحمد
٨٧	ـ صناع الحضارة العلمية فى الاسلام ج ١	د٠ أحمد محمـد عوف
٨٨	ـ صناع الحضارة العلمية فى الاسلام ج ٢	د٠ أحمد محمـد عوف
٨٩	ـ عبقرية الحضارة المصرية القديمـة	د٠ أحمد محمـد عوف
٩٠	ـ الفـلك عنـد العـرب والمسلمين ج ١	د٠ زين العـابدين متولى
٩١	ـ الفـلك عنـد العـرب والمسلمين ج ٢	د٠ زين العـابدين متولى

٩٢	ـ أهم الأحداث والاكتشافات العلمية لعام ١٩٩٦	محمــد فتحــى
٩٣	ـ اسرار علم الجينــات	م· طبى عبد الباسط الجمل
٩٤	ـ الانترنـــت	د· عبد اللطيف ابو السعود
٩٥	ـ موسوعة الأعشاب الطبية	صيدلى/ أحمد محمد عوف
٩٦	ـ البلاســتيك وتأثيراتــه البيئية والصحية	د· أحمد مجدى حسين مطاوع
٩٧	ـ (موســوعة أسئلة وأجوبة (من كنوز المعرفة ـ الجزء الأول) أسرار الأرض	ترجمة : هاشم أحمد محمد
٩٨	ـ القلب البديل (الخرافة والأســطورة)	محمــد فتحــى
٩٩	ـ (موســوعة أسئلة وأجوبة من كنوز المعرفة ـ الجزء الثانى) أسرار جسم الانســان	ترجمة : هاشم أحمد محمد
١٠٠	ـ سيمفونيــة العــلم	د· عفــاف على نــدا
١٠١	ـ ســكان الـكواكب	د· امام ابراهيم أحمــد
١٠٢	ـ السمنة وعلاجها ج ١	د· فتحى ســيد نصــر
١٠٣	ـ السمنة وعلاجها ج ٢	د· فتحى ســيد نصــر
١٠٤	ـ التلوث البيئى والهندسة الوراثيــة	د· على محمد على عبد الله
١٠٥	ـ التلوث البيئى وســبل مواجهته	د· محمد نبهان سويلم
١٠٦	ـ (موســوعة أسئلة وأجوبة (من كنوز المعرفة ـ الجزء الثالث) أسرار جسم الحيوان	ترجمة : هاشم أحمد محمد
١٠٧	ـ حـكاية الاستنســاخ	م· عبد الباسط الجمــل
١٠٨	ـ التلوث الكهرومغناطيسى	عبد المقصـــود حجو

الرقم	العنوان	المؤلف
١٠٩	تغيير المناخ ومستقبل الأرض	د. محمد أحمد الشهاوى
١١٠	الانسان والطاقة ج ١	زكريا أحمد البرادعى
١١١	الانسان والطاقة ج ٢	زكريا أحمد البرادعى
١١٢	أهم الأحداث والاكتشافات العلمية (٣) ج ١	محمد فتحى
١١٣	أهم الأحداث والاكتشافات العلمية (٣) ج ٢	محمد فتحى
١١٤	منظومة الحياة	صيدلى/ أحمد محمد عوف
١١٥	صيد البحر وطعامه	رجب سعد السيد
١١٦	مواقع النجوم ج ١	مهندس/ سعد شعبان
١١٧	مواقع النجوم ج ٢	مهندس/ سعد شعبان
١١٨	(موسوعة أسئلة وأجوبة من كنوز المعرفة ـ الجزء الرابع) عالم الفنون	ترجمة : هاشم أحمد محمد
١١٩	(موسوعة أسئلة وأجوبة من كنوز المعرفة ـ الجزء الخامس) مغامرات مدهشة	ترجمة : هاشم أحمد محمد
١٢٠	سر النهوض والتقدم (لماذا لا يبدع المصريون)	محمد فتحى
١٢١	النقل الجوى وتكنولوجيا المعلومات	د. سراج الدين محمد
١٢٢	المريخ فى انتظارنا	مهندس/سعد شعبان
١٢٣	مسيرة العلم	د. عفاف على ندا
١٢٤	حرائق المواد البلاستيكية واخطارها	د. أحمد مجدى مطاوع
١٢٥	البترول مخاطره الصحية وتلوث البيئة	طبيب/ صلاح عدس

١٢٦ ـ طريقك للاختراع — مهندسة/ ليلى عبد المنعم

١٢٧ ـ اسرار العطور — كيميائى/ عبد الوهاب القاضى

١٢٨ ـ الشمس النجم الأم — د٠ منير أحمد محمود حمدى

١٢٩ ـ الطاقة المتجددة امل مصر — د٠ عبد المقصود حجو

١٣٠ ـ مرض السكر (أوهام وحقائق) — صيدلى/ أحمد محمد عوف

١٣١ ـ الذكاء الصناعى — م٠ محمد نبهان سويلم

١٣٢ ـ التحكم فى التكوين الوراثى للانسان — د٠ محمد فتحى

١٣٣ ـ تلوث البيئة وثقب الأوزون — مهندس/ سعد شعبان

١٣٤ ـ المواد اللاصقة والطلائية — د٠ أحمد مجدى مطاوع

١٣٥ ـ الكمبيوتر والثقافة والفنون — د٠ محمد فتحى

١٣٦ ـ افلا تبصرون — د٠ أحمد محمد عوف

١٣٧ ـ ثغرات فى ثوب العلم — منى خليل

١٣٨ ـ رحلة فى الكون والحياة ج ٣ — د٠ أحمد محمد عوف

١٣٩ ـ البحار ٠٠ كنوز القرن ٢١ — د٠ عبد المقصود حجو

١٤٠ ـ العلاج بالليزر — د٠ فتحى نصر

١٤١ ـ مستكشفوا الذرة — ترجمة/ د٠ محمد صالح

١٤٢ ـ بيئة خالية من التلوث — م/ ليلى عبد المنعم

١٤٣ ـ النقل ٠٠ عصب الحضارة — د . عبد المقصود حجو

١٤٤ ـ مدينة الفسطاط وعبقرية — د . أحمد محمد عوف

رقم الايداع بدار الكتب ٢٠٠٣/٤٣٤٦

I.S.B.N. 977 — 01 8910 — 1